حسابهم من شيءٍ وما من حسابك عليهم من شيء ﴾ ويقرّر السّياق أنّه في مثـل هذه الطّريقة يبتلي الله تعالى بعضهمَ ببعض ويختبر الكافرين ويمتحنهم بسبق المؤمنين الفقراء إلى الإيمان ليقول الكافرون في استهزاء بالضّعفاء : أهؤلاء الّذين منّ الله تعالى عليهم بالإيمان الّذي سبقونا إليه . ويكون الجواب في الآية الكريمة على المستهزئين : أليس الله تعالى بأعلم بالشّاكرين الّذين أدركوا نعمة الإسلام فاهتبلوها وهم الفقراء الشّكورون . وهؤلاء المؤمنون تشملهم رحمة البّر الرّحيم فيقرّر السّياق أنّه إذا جاءك أيّها الرّسول الكريم المؤمنون بآيات الكتاب العزيز فقل لهم سلامٌ عليكم من ربٍّ رحيم وأمنٌ وطمأنينة ، كتب ربّكم على نفسه الرّحمة أنّه من عمل منكم سوءاً بجهالة وارتكب إثماً معترفاً بسفهه ثمّ تاب من بعد الذّنب وعمل صالحاً فاعلموا أنّ الله غفورٌ رحيم . إنّ في مثل هذه الطّرائق من التّفصيل نفصّل الآيات ونوضّحها لُيْعَرف الطّريق المستقيم ولتستبين في المقابل سبيل المجرمين .

ولمّا كان المشركون ينأون عن الإسلام ويدعون إلى الشّرك فقد أمر السّياق المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أن يقول للمشركين إنّي نهيت أن أعبد الّذين تدعون من دون الله تعالى وأن يقول لهم لا أتّبع أهواءكم قد ضللت إن فعلت ذلك وما أنا من المهتدين ، وأن يقول لهم إنّه عليه الصّلاة والسّلام على بيّنة من ربّه جلّ وعلا عن طريق الوحي الّذي كذّب به المشركون ووراء ذلك استعجلوا العذاب ، لذا أمر عليه الصّلاة والسّلام أن يقول لهم إنّه ليس عنده ما يستعجلون من العذاب فليس الحكم إلاّ لله تعالى الّذي يقصّ القصص الحقّ وهو خير الفاصلين يوم القيامة بين الرّسل وأقوامهم . وأُمِر عليه الصّلاة والسّلام أن يقول لقومه المشركين لو أنّ عندي ما تستعجلون به من العذاب وكنت أملكه لقُضي الأمر بيني وبينكم بإنزاله بكم ولكن ليس عندي شيءٌ من ذلك . إنّ كلّ شيءٍ عند الله تعالى العليم بكم أيّها الظّالمون .

مِنْ مَظَاهِر عِلْمِهِ جَلَّ وَعَلَا وَقُدْرَتِه

الآيات : ٥٩ — ٦٧

يقرّر السّياق أنّ الله سبحانه وتعالى عنده مفاتح الغيب الخمس الّتي لا يعلمها إلاّ هو جلّ وعلا ، وهي علم السّاعة ونزول الغيث وما في الأرحام وكسب كلّ نفسٍ مستقبلاً

والأرض الّتي يموت فيها الإنسان . كما يعلم جلّ وعلا ما في البرّ والبحر وما تسقط من ورقة إلاّ يعلمها جلّ وعلا ولا حبّة في ظلمات الأرض ولا رطبٍ من الثّمر ولا يابسٍ إلاّ في كتابٍ مبين هو اللّوح المحفوظ . وإذا كان موت الإنسان واحداً من مفاتح الغيب الّتي لا يعلمها إلاّ الله تعالى وكان النّوم أخاً أصغر للموت فإنّ السّياق يتحدّث عن النّوم فيبيّن أنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذي يتوفّانا باللّيل ويبعثنا في النّهار ويعلم ما كسبنا فيه من خيرٍ أو شرّ ، وإنّما يبعثنا جلّ وعلا في النّهار ليُقْضي الأجل المسمّى للإنسان في هذه الحياة الدّنيا ثمّ إليه جلّ وعلا مرجعنا جميعاً ثمّ ينبّئنا بما كنّا نعمل في الحياة الدّنيا ويجازينا . إنّ الفعّال لكلّ ذلك هو جل وعلا القاهر فوق عباده المستعلي عليهم ويرسل علينا ملائكةً حفظةً لنا باللّيل والنّهار حتّى إذا جاء أحدنا الموت تخلّت بإرادة الله تعالى الملائكة الحفظة وتوفّتنا رسل الله تعالى من الملائكة الموكلة بذلك وهم لايفرّطون في حفظ ذلك وإحصائه ، وعُدْنا إلى الله سبحانه وتعالى مولانا الحقّ الّذي له الحكم وهو أسرع الحاسبين للخلائق يوم القيامة . واستمراراً لبيان قدرة الله تعالى يؤمر المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أن يقول للمشركين من ينجّيكم من ظلمات البرّ والبحر ، حينما تضلّون وتشعرون بالخطر ، تدعونه جهراً وسرّاً لئن أنجانا من هذه الورطة لنكوننّ من الشّاكرين . إنّه لاجواب سوى ما بيّنه السّياق : ﴿ قل الله ينجّيكم منها ومن كلّ كربٍ ثمّ أنتم تشركون ﴾ عجيبٌ أمر هؤلاء القوم يصرّون على الشّرك بعد كلّ هذا الفضل من الله تعالى . ويؤمر المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أن يقول للمشركين إنّ الله سبحانه وتعالى هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم كالرّجم والصّيحة أو من تحت أرجلكم كالخسف أو يخلطكم شيعاً وفرقاً ويذيق بعضكم بأس بعض . انظر يا محمّد بقلبك كيف نصرّف الآيات ثمّ هم لايفقهون . والآية الكريمة شاملة كذلك للمؤمنين حينما ينحرفون عن الجادّة لاسمح الله . وأصرّ قوم المصطفى صلّى الله عليه وسلّم على تكذيب القرآن الكريم وهو الحقّ . قل يا محمّد لست عليكم بحفيظٍ ولا مسيطر . لكلّ نبأ مستقرّ ولكلّ خبر وقوع وسوف تعلمون .

الأمر بالإعراض عن المستهزئين والإنكار على الداعين إلى الكفر والأمر بتقوى الله تعالى

الآيات : ٦٨ — ٧٢

الاستهزاء والسّخرية من الأسلحة الخبيثة الفتّاكة الّتي يستعملها خصوم الإسلام . وإنّ السّياق ليرشد المصطفى صلّى الله عليه وسلّم إلى كيفيّة التّعامل مع المستهزئين حينما يخوضون في آي الذّكر الحكيم . إنّ المطلوب من المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أن يعرض عنهم ويصدّ عنهم بوجهه حتّى يخوضوا في حديثٍ غير الاستهزاء . وإن أنساك أيّها الإنسان الشّيطانُ الرّجيم عليه لعنة الله تعالى ووجدت نفسك مع الخائضين فلا تقعد بعد التّذكّر مع القوم الظّالمين . إنّ الّذين يتّقون الله تعالى ليس عليهم من حساب الله تعالى للمستهزئين من شيء ولكن أمرهم الله تعالى بالإعراضٍ عن المستهزئين تذكيراً لهم لعلّهم يتّقون الله تعالى ولا يعودون للاستهزاء . وبعد الأمر بالاعراض عن الخائضين يؤمر عليه الصّلاة والسّلام بترك الّذين اتّخذوا دينهم الّذي أُمروا به ودعوا إلى اعتناقه لعباً ولهواً وغرّتهم الحياة الدّنيا وأن يذّكر بالقرآن الكريم لئلاّ تُسْلَمَ نفس للهلكة بسبب الآثام الّتيّ ارتكبت وليس لهذه النّفس من دون الله تعالى وليٌّ يتولّى أمورها ولا شفيعٌ يشفع لها ولا فداءٌ يُقْبَل منها ولو قدّمت كلّ ما تملك فداءً . إنّ أولئك الّذين أسلموا أنفسهم للهلاك لهم شرابٌ من حميمٍ وعذابٌ أليمٌ بما كانوا يكفرون . قل يا محمّد لأولئك الّذين أسلموا أنفسهم للهلاك أندعو من دون الله تعالى ما لاينفعنا ولا يضرّنا ونردّ على أعقابنا القهقرى إلى الكفر بعد إذ هدانا الله تعالى ويكون مثلنا كمثل الّذي استهوته الشّياطين في الأرض وجذبته إليها فأمسى حيران لايعرف الطّريق ولا يهتدى السّبيل وله أصحابٌ مهتدون سائرون على المحجّة البيضاء يدعونه إلى الهدى ائتنا . إنّ هذا هو هدى الله تعالى الّذي بعث به محمّداً صلّى الله عليه وسلّم وهو دين الإسلام الّذي لايقبل الله تعالى سواه وقد أُمِرْنا جميعاً أن نُسْلِمَ لله ربّ العالمين ، كما أمرنا بأن نقيم الصّلاة وأن نتّقي الله تعالى الّذي نجمع بين يديه للحساب يوم القيامة والّذي خلق

السّماوات والأرض بالحقّ وأن نتّقي يوم القيامة الّذي يقول الله تعالى له كن فيكون فقول الله تعالى الحقّ ، وله جلّ وعلا الملك يوم ينفخ إسرافيل في الصّور النّفخة الثانية ، وهو عالم الغيب والشّهادة ، وهو الحكيم الخبير .

آتينا إبراهيم حجتنا على قومه
واقتد يا محمد بالذين هداهم الله
الآيات : ٧٤ — ٩٠

إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام الّذي آتاه الله تعالى رشده يقول لأبيه وقومه إنّي أراك يا أبي وقومك المشركين في ضلالٍ مبين . وكما أرى الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السّلام البصيرة في دينه أراه جلّ وعلا ملك السّماوات والأرض وما يدّل عليه من إلهٍ واحدٍ قاهر كي يكون عليه السّلام من الموقنين بتلك الوحدانيّة . ومن دلائل فضل الله تعالى على إبراهيم الّذي جاهد في الله تعالى فهداه جلّ وعلا السّبيل إليه أنّه عليه الصّلاة والسّلام لمّا جنّ عليه اللّيل وأظلم وبدت النّجوم رأى كوكباً هو الزُّهَرَة فيما يقال وهو أشدّ الكواكب ضياءً فقال مُسْمعاً قومه هذا ربّي حسب زعمكم فلّما غاب قال لا أحبّ الآفلين . فتحوّل إبراهيم عليه السّلام إلى القمر وهو أشرف من الزّهرة وأشدّ نوراً فلمّا رأى عليه السّلام القمر طالعاً قال هذا ربيّ حسب زعمكم فلمّا أفل وغاب قال عليه السّلام : لئن لم يهدني ربّي إلى الصّراط المستقيم بعبادته جلّ وعلا وحده لاشريك له لأكوننّ من القوم الضّالّين . ومعروفٌ أنّه عليه الصّلاة والسّلام سبق أن قال لأبيه وقومه إنّكم في ضلالٍ مبين . وتجاوز عليه الصّلاة والسّلام الزّهرة والقمر إلى الشّمس وهي أشرف منهما وأشدّ ضوءاً ، فلمّا رآها عليه الصّلاة والسّلام ظاهرةً قال هذا ربيّ بزعمكم هذا أكبر من الكوكب ومن القمر . فلمّا غابت الشمس قال ياقوم إنّي بريءٌ ممّا تشركون به جلّ وعلا من كواكب وأصنام ، إنّي وجّهت وجهي للّذي خلق السّماوات والأرض على غير مثالٍ سابق مسلماً لله ربّ العالمين منصرفاً عن كلّ دين سوى دين الإسلام لربّ العالمين وما أنا من المشركين سواءٌ كانوا قومي أو سواهم . وجادل إبراهيم عليه السّلام قومُهُ في توحيد الله تعالى وبراءته من الأصنام قال أتجادلونني في دِيْن الله تعالى الّذي ارتضاه دين الإسلام والّذي هداني الله تعالى إليه . ويقرّر

إبراهيم عليه السّلام أنّه لايخاف ما يشركون به من دون الله تعالى من آلهة عاجزة ولكنّه يخاف الله تعالى الّذي يفعل ما يشاء بإبراهيم عليه السّلام وغير إبراهيم . لقد وسع الله تعالى كلّ شيء علماً فعلى قومه أن يتذكّروا كلّ ذلك ولا ينسوه . وكيف يخاف إبراهيم عليه السّلام الآلهة المزعومة الّتي أشركوها مع الله تعالى ولا يخافون أنّهم أشركوا بالله تعالى ما لم ينزّل به عليهم سلطاناً ولاحجّة . فأيّ الفريقين ، إبراهيم عليه السّلام ومن اهتدى بهديه أو قومه الضّالّون أحقّ بالأمن من عذاب الله تعالى ؟ والجواب بطبيعة الحال معروف . إنّهم إن علموا ذلك عليهم أن يتحوّلوا منسلمين لله ربّ العالمين . ويأتي فصل القضاء من ربّ العالمين ذي الجلال والإكرام في قوله تعالى: ﴿ الّذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلمٍ أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ إنّ الّذين آمنوا بالله تعالى وحده لاشريك له ربّاً ولم يخلطوا إيمانهم بشرك أولئك لهم الأمن يوم القيامة وهم مهتدون في هذه الحياة الأولى . وهكذا آتى ربّ العزّة حجّته إبراهيم عليه السّلام على قومه ، يرفع الله سبحانه وتعالى من يشاء من عباده درجاتٍ بالعون والهداية . إنّه جلّ وعلا حكيمٌ في صنعه عليمٌ لايخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء .

ووهب الله تعالى إبراهيم عليه السّلام فضلاً منه ونعمة إسحاق ابنه ويعقوب بن إسحاق في حياة إبراهيم عليه السّلام وكلاًّ هدى الله تعالى وجعله نبيّا . وقد هدى الله سبحانه وتعالى من قبل نوحاً عليه السّلام وهدى من ذرّيّة نوحٍ عليه السّلام داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكانوا من المحسنين . كما هدى الله تعالى زكريّا ويحيى وعيسى وإلياس ، وكانوا من الصّالحين . كما هدى الله تعالى إسماعيل بن إبراهيم واليسع ويونس ولوطاً وكلاًّ فضّل الله سبحانه وتعالى على العالمين بالنّبوّة الّتي أكرمهم الله تعالى بها كما أكرم بها كلّ الّذين ذكرهم السّياق . وكذلك هدى الله جلّ وعلا من آباء هؤلاء وذرّياتهم وإخوانهم واصطفاهم وهداهم إلى صراط مستقيم . إنّ ذلك الصّراط المستقيم هُدَى الله تعالى يهدى به من يشاء من عباده . ولو فرض أنّ واحداً من هؤلاء أشرك لبطل عمله الصّالح الّذي سبق أن قام به . إنّ أولئك المنعم عليهم هم الّذين آتاهم الله تعالى الكتب السّماويّة والحكمة بمعنى فهم تلك الكتب والنّبوّة . فإن يكفر يا محمّد قومك بنبوّتك ورسالتك فقد وكّلنا بها وسخّرنا لها قوماً من المهاجرين والأنصار ليسوا بها بكافرين . إنّ أولئك المنعم عليهم هم الّذين هدى الله تعالى فبهداهم اقتد يامحمد وقل لقومك لا أسألكم أجراً على دعوتي إليكم

إلى دين الإسلام وليس هذا القرآن الكريم سوى ذكرى للعالمين وموعظة للثّقلين الإنس والجنّ .

اللّه تعالى منزل كلّ الكتب السّماويّة
وإنذار المفترين على اللّه الكذب والمنكرين للبعث
الآيات : ٩١ — ٩٤

إنّ كفّار مكّة ومن شاكلهم ما قدروا اللّه تعالى حقّ قدره ولا عظّموه حقّ تظيمه إذ قالوا ما أنزل اللّه على بشرٍ من شيء من الكتب السّماويّة . وبسبب العلاقة الوطيدة بين كفّار مكّة وبين يهود المدينة المنوّرة بخاصّة إضافةً إلى كون رسالة عيسى عليه السّلام استمراراً لرسالة موسى عليه السّلام ، فعلى سبيل المثال الجنّ الّذين استمعوا للمصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم بوادي نخلة بين مكةَ والطّائف يجيء على لسانهم في سورة الأحقاف[1] قوله تعالى : ﴿ قالوا يا قومنا إنّا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدّقاً لما بين يديه يهدي إلى الحقّ وإلى طريقٍ مستقيم ﴾ بسبب ذلك يجيء في آية سورة الأنعام قوله تعالى : ﴿ قل من أنزل الكتاب الّذي جاء به موسى نوراً وهدىً للّناس ﴾ ولمّا كان كفّار مكّة وكفّار يهود شركاء في الضّلال المبين فقد كان ثمّة تحوّلٌ إلى خطاب هؤلاء اليهود قوم موسى عليه السّلام الّذي أنزل اللّه تعالى عليه التّوراة الّتي نبذها قومه عليه السّلام وراءهم ظهريًّا ، وكان ثمّة نعيٌ على هؤلاء اليهود الّذين جعلوا التّوراة قِطعاً وأجزاءً مكتوبةً في صحف منسوخةً من الكتاب الأصليّ . إنّ اليهود يبدون من هذه القراطيس ما يشاءون ويخفون كثيراً . ويعود السّياق إلى العرب في معرض المنّ عليهم . لقد علّمهم اللّه تعالى بالقرآن الكريم والرّسول العظيم ما لم يعلموا هم ولا آباؤهم . إنّ الآية الكريمة تجيب على السّؤال فتقرّر أنّ اللّه سبحانه وتعالى هو الّذي أنزل التّوراة وهو الّذي أنزل القرآن ثمّ تأمر المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم أن يتركهم في باطلهم يلعبون . إن هذا القرآن الكريم كتابٌ مبارك أنزله اللّه تعالى ومصدقٌ للّذي بين يديه من الكتب السّماويّة ولينذر المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم

---

(١) الآية ٣٠ .

به أمّ القرى وهي مكّة المكرّمة ومن حولها من أهل القرى . ونستطيع أن ننظر إلى ما حول مكّة المكرّمة من زاوية القرب وكأنّ الآية الكريمة تومىء إلى انتشار الإسلام المحدود أوّل الأمر ، ونستطيع أن ننظر إلى ما حول مكّة في ضوء ما اكتشفه العلم الحديث بأنّ مكّة المكرّمة مركز اليابسة وقلب الكرة الأرضيّة وبناءً على ذلك فإنّ ما حول مكّة يأخذ في الاتّساع كي يشمل الكرة الأرضيّة كلّها . والمعروف أنّ ممّا خصّ به محمّد بن عبدالله صلّى الله عليه وسلّم أنّ رسالته إلى النّاس كافّة . وإنّ هؤلاء المشركين لا أحد أظلم منهم حينما يفترون على الله تعالى الكذب بنسبة الولد والصّاحبة والشّريك إليه ، وحينما يزعم الزّاعم منهم بأنّ الله سبحانه وتعالى قد أوحى إليه ولم يُوحَ إليه شيءٌ وحينما يقول القائل منهم سأنزل مثلما أنزل الله تعالى من قرآن كريم .

ويخاطب السّياق النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قائلاً : ولو ترى يا محمّد إذ الظّالمون في سكرات الموت والملائكة باسطو أيديهم إليهم بالضّرب قائلين لهم أخرجوا أرواحكم الخبيثة من أجسادكم الخبيثة ، لو ترى ذلك لرأيت أمراً عظيماً ، وقائلين لهم كذلك : اليوم تجزون عذاب الهوان بما كنتم تقولون على الله تعالى غير الحقّ من نسبة الشّريك والصّاحبة والولد إليه وبما كنتم عن آياته جلّ وعلا تستكبرون ، وقائلين لهم لقد جئتمونا في هذا اليوم فرادى كما خلقناكم أوّل مرّةٍ حفاةً عراةً غرلاً ، وتركتم ما أعطيناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الّذين زعمتم أنّهم فيكم شركاء وأنّ لهم فيكم قسطاً في استحقاق العبادة . لقد تقطعت بينكم العلاقات الّتي كانت في الدّنيا وغاب عنكم ماكنتم تزعمون من آلهة عاجزةٍ زعمتم أنّها تملك لكم شيئاً وهي لاتملك شيئاً مطلقاً .

من آيات الله تعالى الدالة على قدرته وإنكار على المشركين وتصريف الآيات للمؤمنين

الآيات : ٩٥ — ١٠٥

من آيات الله تعالى الدّالّة على قدرته أنّه جلّ وعلا شاقّ الحبّ فيخرج الزّرع وشاقّ النّوى فيخرج الشّجر ، يخرج الحيّ من الميّت كالإنسان من النّطفة والطّائر من البيضة ويخرج الميّت من الحيّ كالنّطفة من الإنسان والبيضة من الطّائر ذلكم الله تعالى

فأنّى تؤفكون وكيف تصرفون عن الحقّ . والله سبحانه وتعالى فالق الإصباح وشاقّ عمود الصّبح عن ظلمة اللّيل وجعل اللّيل سكناً لكلّ الخلائق يسكن فيه المتحرّك ويهدأ وجعل الشّمس والقمر يجريان في أفلاكهما بحساب . ذلك تقدير العزيز في ملكه العليم الّذي لايخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء . والله سبحانه وتعالى جعل لنا النّجوم لنهتدي بها في ظلمات البرّ والبحر . وقد فصّل الله تعالى الآيات وبيّنها لقوم يعلمون . والله سبحانه وتعالى أنشأنا من نفسٍ واحدة وخلقنا من أبينا آدم عليه السّلام الّذي جعل منه زوجه حوّاء وجعل رحم الأنثى مستقرّاً للنّطفة وللولد وجعل صلب الرّجل مستودعاً للنّطفة . وقد فصّل الله تعالى الآيات لقومٍ يفقهون . والله سبحانه وتعالى أنزل من السّماء ماءً فأخرج به نبات كلّ شيءٍ فأخرج من النّبات زرعاً وشجراً أخضر وأخرج من الخَضِر حبّاً متراكباً ، ومن النخل من طلعها قنوانٌ دانيةٌ وعذوقٌ قريبة التّناول ، كما أخرج جلّ وعلا جنّاتٍ من أعنابٍ والزّيتون والرّمّان مشتبهاً في الشّكل والورق وغير متشابه في الثّمر شكلاً وطعماً ورائحة . لننظر إلى ثمره إذا أثمر وينعه إنّ في ذلكم لآيات لقومٍ يؤمنون بالله تعالى حقّاً وصدقاً .

وإن جملة : ﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴾ والّتي تعني تقلّب الطّرف والنّظر تلفت الانتباه إلى تنوّع الآيات الدّالّة على قدرة الله تعالى وتنوّع التّعبير كذلك فثمة جملة : ﴿ يخرج ﴾ ولفظة : ﴿ مخرج ﴾ وثمّة لفظة : ﴿ فالق ﴾ وجملة ﴿ جعل ﴾ وثمّة القول : ﴿ مشتبهاً وغير متشابه ﴾

وعلى الرّغم من هذه الآيات البيّنات هم يجعلون لله سبحانه وتعالى الجنّ شركاء بينما هو المتفرّد بالخلق ، واختلقوا له جلّ وعلا بنين وبناتٍ بغير علمٍ صحيح سبحانه وتعالى عمّا يصفونه جلّ وعلا من اتّخاذ البنين والصّاحبة . إنّه جلّ وعلا مبدع السّماوات والأرض على غير مثالٍ سابق ، وهما أكبر من الإنسان فكيف يكون له جلّ وعلا ولدٌ ولم تكن له صاحبة وهو الغنيّ عمّا سواه وخلق كلّ شيءٍ وهو بكلّ شيءٍ عليم سبحانه وتعالى ، وهو ربّنا لا إله إلاّ هو وخالق كلّ شيءٍ فعلينا أن نفرده جلّ وعلا بالعبادة وهو تعالى على كلّ شيءٍ حفيظ يرقبه ووكيل يرعى شئونه . والله سبحانه وتعالى لاتدركه الأبصار وهو جلّ وعلا يدرك الأبصار وهو اللّطيف لكلّ شيءٍ يأتيه الخبير بباطن كلّ شيءٍ كظاهره . ويقرّر السّياق مجيء الآيات البّينات من ربّنا جلّ وعلا فمن أبصر فلنفسه وله ثواب حسناته ومن عمي فعليه وزر

سيّئاته . والمصطفى صلّى الله عليه وسلّم ليس بالمسيطر علينا ولا الرّقيب إنّما عليه البلاغ فقط .

إنّ في مثل هذه الطّريقة من تتابع الآيات البيّنات يصرّف الله جلّ وعلا آيات الكتاب العزيز بينما يزعم المشركون أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم تلقّى تلك الدّروس من بعض البشر وفيهم الأعجميّ الّذي لايكاد يبين بينما عجز فحول العرب عن الإتيان بمثل أقصر سورةٍ من سور القرآن الكريم الّذي بيّنه الله تعالى لقومٍ يعلمون الحقّ فيتبعونه ، فالقرآن الكريم نزل بلسانٍ عربيّ مبين والرسول الكريم واحدٌ من العرب وهو الذي يبيّن معاني القرآن الكريم للنّاس لعلّهم يتفكّرون .

اتبع يا محمّد ما أوحي إليك

وأعرض عن المشركين الذين صرف الله تعالى قلوبهم عن الحقّ

الآيات : ١٠٦ — ١١٠

تجاه إصرار المشركين على شركهم وصدّهم غيرهم عن سبيل الله تعالى يؤمر المصطفى صلّى الله عليه وسلّم بأن يتّبع ما أوحي إليه من ربّه جلّ وعلا الّذي لا إله إلاّ هو وأن يعرض عن المشركين . وبقصد تسليته عليه الصّلاة والسّلام يبيّن السّياق أنّ ربّ العزّة لو شاء ما أشرك كفّار مكّة وسواهم ، وأنّه تعالى ما جعل المصطفى صلّى الله عليه وسلّم حفيظاً ولا وكيلاً عليهم ، وفي ذلك تسليةٌ للمصطفى صلّى الله عليه وسلّم . وإنّ المؤمنين ينالون حظّهم من التّوجيه القرآنيّ فلا ينبغي أن يقودهم فرط حماسهم للدّعوة إلى صراط العزيز الحميد إلى سبّ الآلهة الّتي يعبدها المشركون لأنّ ذلك يحملهم على التّطاول على الذّات العليّة والانتصار للآلهة المزعومة بسبب سفههم وعدم علمهم . ويقرّر السّياق أنّ ربّ العزّة زيّن لكلّ أمّةٍ عملهم وحينما يرجعون إلى بارئهم جلّ وعلا يثيب المحسن ويعاقب المسيء . وهؤلاء المشركون يقسمون بالله تعالى غاية اجتهادهم لئن جاءتهم آيةٌ ممّا اقترحوا على المصطفى صلّى الله عليه وسلّم فإنّهم سوف يؤمنون . ويؤمر المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أن يقول للمشركين إنّ الآيات عند الله تعالى وليست عندي ويخاطبُ المؤمنون بالقول : ﴿ وما يشعركم أنّها إذا جاءت لايؤمنون ﴾ وما الّذي يعلمكم أيّها المؤمنون أنّ

الآيات إذا جاءت لايؤمن المشركون ؟ وتجيب آخر آيات الجزء على هذا السؤال : ﴿ ونقلّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أوّل مرّةٍ ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ إنّ الله سبحانه وتعالى سيجعل أفئدة أولئك المنصرفين عن القرآن الكريم وآيات الله تعالى البيّنات أشدّ انصرافاً وأبصارهم أشدّ عمى امتداداً لما حلّ بهم من انصرافٍ وعمىً أوّل عهدهم بالقرآن الكريم ، ويتركهم في طغيانهم يعمهون وفي ضلالهم يتحيّرون .

التفسير

آيات لله تعالى بيّنات وتكذيب بالرسول والقرآن وعقاب المستهزئين

الآيات : ١ — ١١

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾

الحمد لله : الحمد الكامل لله وحده لاشريك له دون جميع الأنداد والآلهة ودون ما سواه ممّا تعبده كفرة خلقه من الأوثان والأصنام[١] والحمد الثّناء على الجميل من نعمةٍ أو غيرها باللّسان وحده ، والثناء بالقول على المحمود بصفاته اللّازمة والمتعدّية[٢] يقال : حمدته لفروسيّته وحمدته لكرمه .

وجعل الظلمات والنور : تدلّ جملة جعل على اتّصال الفعل ودوامه[٣] عن السّدّي . الظّلمات ظلمة اللّيل . والنّور نور النّهار[٤] .

ثمّ الذين كفروا بربّهم يَعْدِلون : أي ومع هذا كلّه كفر به بعض عباده وجعلوا له شريكا وعَدْلاً واتّخذوا له صاحبةً وولداً تعالى الله عزّ وجلّ عن ذلك علوّاً كبيرا[٥] يقال من مساواة الشّيء بالشّيء عدلت هذا بهذا إذا ساويته به عَدْلاً ، وأمّا في الحكم إذا أنصفت فيه فإنّك تقول : عدلت فيه أعدل عدلاً[٦] .

سورة الأنعام مكّيّة . وعن ابن عمر قال . قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : نزلت عليّ سورة الأنعام جملةً واحدةً وشيّعها سبعون ألفاً من الملائكة لهم زَجَلٌ بالتّسبيح والتّحميد[٧] .

والسّورة الكريمة تبدأ بالحمد لله تعالى وهي واحدة من سورة خمسٍ تبدأ بالحمد لله ، والسّور الأربع الأُخَر هي الفاتحة والكهف وسبأ وفاطر .

والآية الكريمة تقرّر أنّ الحمد الكامل لله وحده لاشريك له وأنّ الثّناء لله تعالى المحمود بصفاته . وتبيّن الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذي خلق السّماوات والأرض

---

(١) تفسير الطّبريّ ٩٢/٧ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢٢/١ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٩٢/٧ .
(٤) تفسير الطّبريّ ٩٢/٧ .
(٥) تفسير ابن كثير ١٢٣/٢ .
(٦) تفسير الطّبريّ ٩٣/٧ .
(٧) تفسير ابن كثير ١٢٢/٢ والزّجل بفتحتين الصّوت

باعتبارهما أكبر مخلوقات الله تعالى الّتي تبصرها العينان . وإذا كانت جملة خلق جاءت مع السّماوات والأرض لأنّ عمليّة الخلق تعني الابتداء والخلق من العدم فإنّ جملة جعل الّتي تفيد الاستمرار والدّوام تجيء مع الظّلمات والنّور ، والمراد ظلمات اللّيل ونور النّهار .

ويلاحظ تقديم الظّلمات باعتبارها الأصل على النّور باعتباره طارئاً وذلك على عادة القرآن الكريم في تقديم الظّلمات .

كما يلاحظ مجيء الظّلمات في صيغة الجمع لأنّها متنوّعة وكثيرة ومجيء النّور في صيغة المفرد لأنّ طريق الحقّ واحد ، ولكون النّور أشرف .

وإنّ مجيء حرف العطف « ثمّ » في القول : ﴿ ثمّ الّذين كفروا بربّهم يعدلون ﴾ يفيد التّعجّب من القوم والإنكار عليهم لإتيانهم الشّطط من القول والفعل . فرغم كلّ هذه الآيات الباهرات والحجج الواضحات هم يشركون مع الله تعالى غيره ويجعلون له شريكاً في عبادتهم إيّاه وعَدْلاً . وإنّ مجيء لفظ الرّبّ مقوٍّ للإنكار والتّعجّب لأنّ لفظ الرّبّ يفيد تربية الله تعالى عباده بنعمه ووجوب القيام بشكر المنعم ولكنّ القوم يكفرون ، ويشركون مع الله تعالى غيره في العبادة .

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾

هو الّذي خلقكم من طين : يعني أباهم آدم الّذي هو أصلهم ومنه خرجوا فانتشروا في المشارق والمغارب[1] .

ثمّ قضى أجلاً : ثم قضى لكم أيّها النّاس أجلاً وذلك ما بين أن يخلق إلى أن يموت[2] .

وأجلٌ مسمًّى عنده : وذلك ما بين أن يموت إلى أن يبعث[3] ومعنى قوله : عنده أي لايعلمه إلاّ هو[4] .

---

(١) تفسير ابن كثير ١٢٣/٢ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٩٤/٧ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٩٤/٧ .
(٤) تفسير ابن كثير ١٢٣/٢ .

ثمّ أنتم تمترون : ثمّ أنتم تشكّون في أمر السّاعة[1] والمرية في كلام العرب هي الشّكّ[2] .

بعد أن تحدّثت الآية الكريمة الأولى في السّورة عن خلق السّماوات والأرض باعتبارهما أكبر من خلق النّاس بنصّ القرآن الكريم[3] وعن الظّلمات والنّور باعتبارهما من متعلّقات السّماوات والأرض وبعد التّعجّب من الإشراك مع الله تعالى غيره رغم كلّ هذه الأدلّة والبراهين وهو جلّ وعلا المستحقّ للحمد كلّه تحوّل السّياق إلى هذا الإنسان الّذي سخّر الله سبحانه وتعالى له ما في السّماوات وما في الأرض . والحديث عن الإنسان على غرار الحديث عن السّماوات والأرض ، من زاوية خلقه وإيجاده من العدم . فآدم عليه السّلام خلقه الله تعالى من طين وخلق منه زوجه حوّاء وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً على نحو ما بيّنت الآية الكريمة الأولى من سورة النّساء . وقد قضى الله سبحانه وتعالى أجلاً لكلّ إنسان يموت عند انتهائه ، كما قضى اللهسبحانه وتعالى أجلاً آخر مسمًّى عنده ومحدّداً في علمه جلّ وعلا وقدره وهذا الأجل المسمّى هو ما بين الموت إلى البعث وقيام السّاعة والوقوف بين يديه جلّ وعلا .

وعلى غرار التّعجّب في الآية الكريمة الأولى من إشراك الكافرين مع الله تعالى غيره رغم كلّ هذه الأدلّة والبراهين يجيء في هذه الآية الكريمة تعجّبٌ في القول :﴿ ثمّ أنتم تمترون ﴾ والمعنى أنّه رغم كلّ هذه الآيات البيّنات الدّالّة على القدرة المطلقة للذّات العليّة أنتم تشكّون في البعث بعد الموت مع أنّ القادر على الخلق ابتداءً قادرٌ على الخلق عودة فإنّ الأمور كلّها سواءٌ في حقّ الذّات العليّة . إنّ المنتظر من جنس الإنسان أن يفرد الله تعالى بالعبادة لا أن يكفر ، وأن يستعدّ للبعث بعد الموت لا أن يشكّ في يوم القيامة لأنّ كلّ الأدلّة والبراهين تقول بذلك .

وفي القول : ﴿ وأجلٌ مسمًّى عنده ﴾ إيماءٌ إلى أنّ السّاعة من علم الله تعالى الّذي لم يَشَأْ أن يطلع عليه أحداً من خلقه .

---

(١) تفسير ابن كثير ١٢٣/٢ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٧ /٩٥ .

(٣) الآية ٥٧ من سورة غافر .

وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾

بعد أن بيّن السّياق أنّ الحمد لله تعالى الّذي خلق السّماوات والأرض وأوجدنا والّذي يميتنا ويحيينا لفصل الحساب ، يتحوّل السّياق في هذه الآية الكريمة إلى بيان أنّ الله سبحانه وتعالى في السّماوات وفي الأرض هو وحده لاشريك له المستحقّ للعبادة دون سواه ، وهو المدعوّ وحده لاشريك له﴿ الله ﴾في السّماوات وفي الأرض . ومن مظاهر قدرة الله تعالى الّذي هو في السّماء إلٰهٌ وفي الأرض إلٰهٌ أنّه يعلم سِرّنا وجهرنا ويعلم ما نكسب من خيرٍ أو شرّ . إنّ الله سبحانه وتعالى يعلم الجهر والسّرّ وما هو أخفى من السّرّ ممّا توسوس به نفس الواحد منا ، ويعلم ما نعمل من خيرٍ أو شرّ ، سرّاً وعلانيةً ، ليلاً أو نهاراً ، فلا يخفى عليه جلّ وعلا شيءٌ في الأرض ولا في السّماء .

وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾

إنّ كفّار مكّة الّذين بعثتك أيّها الرّسول الكريم بين ظهرانَيْهِمْ ما تأتيهم من آيةٍ من آيات ربّهم الدّالّة على وحدانيّة الله تعالى ، وعلى صدقك أيّها الرّسول الكريم ، وعلى كون القرآن الكريم ، الّذي لايستطيعون أن يأتوا بمثل أقصر سورةٍ من سوره ، كلام ربّ العالمين موحىً به إليك بواسطة رسولٍ من الملائكة كريم ، إنّ كفّار مكّة ما تأتيهم من آيةٍ من آيات ربّهم إلاّ كانوا معرضين عنها صادّين عن قبولها والاستماع إليها . ومن الواضح أنّ الآيات الكريمات السّابقات في هذه السّورة الكريمة من الآيات البيّنات الهاديات إلى الصّراط المستقيم من ألقى السّمع وهو شهيدٌ بقلبه ، وقد أعرض كفّار مكّة عن هذه الآيات البيّنات والحجج الباهرات .

فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾

تبيّن الآية الكريمة السّبب الّذي من أجله أعرض كفّار مكّة عن آيات ربّهم البيّنات . إنّهم قد كذّبوا بالحقّ لمّا جاءهم . وهذا الحقّ الّذي جاءهم يصحّ أن يكون المصطفى صلّى الله عليه وسلّم ، فبسبب تكذيبهم له صلّى الله عليه وسلّم كذّبوا بآيات

الله تعالى البيّنات الّتي أوحاها الله تعالى إليه . ويصحّ أن يكون الحقّ الّذي جاءهم هو القرآن الكريم الّذي كذّبوا به جملةً وأعرضوا عن آياته تفصيلاً . إنّ كفّار مكّة قد كذّبوا بكلٍّ من الرّسول العظيم والقرآن الكريم الموحي به إليه . وانظر إلى جملة جاء الّتي تستعمل في القرآن الكريم دليلاً على القرب والوصول والانتهاء فعلاً . وهذه هي صفة كلٍّ من الرّسول الكريم والقرآن المجيد .

أما وقد كذّب كفّار مكّة بالحقّ لمّا جاءهم فإنّ الآية الكريمة تهدّدهم وتنذرهم بأنّهم سوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون وسوف يصلهم ما يظنّونه بعيداً من عواقب سيّئةٍ أليمةٍ جزاء استهزائهم بكلٍّ من الرّسول العظيم والقرآن الكريم . وكانت أقرب العواقب السّيّئة في حقهم ما حلّ بهم في يوم بدرٍ يوم الفرقان من هزيمة وهوان . والآية الكريمة تأخذ بسببٍ من مثل قوله تعالى[1] : ﴿ إنّ كفيناك المستهزئين ﴾ وقوله تعالى[2] : ﴿ وقال الّذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغَوْا فيه لعلّكم تَغْلِبون ﴾ .

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾

من قرن : أمّة من الأمم الماضية [3] .

مكّنّاهم في الأرض ما لم نمكّن لكم : أعطيناهم ما لم نعطكم [4] .

مدراراً : غزيرةً دائمة [5] .

بعد تهديد الكافرين بما سوف يحلّ بهم بسبب استهزائهم يتمّ التّحوّل في هذه الآية الكريمة إلى التّهديد بما حلّ بالكافرين السّابقين حينما أصرّوا على كفرهم ، فعلى كفّار مكّة ومن لفّ لفّهم أن يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً وإلاّ حلّ بهم مثل ما حلّ بالمكذّبين أمثالهم الّذين يمرّون بهم في أسفارهم مصبحين وباللّيل .

---

(١) سورة الحِجْر ٩٥ .

(٢) سورة فصّلت ٢٦ .

(٣) الجلالين وتفسير الطّبريّ ٩٦/٧ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٩٦/٧ .

(٥) تفسير الطّبريّ ٩٦/٧ .

إن الآية الكريمة تسأل في إنكار : ألم ير كفّار مكّة الكثرة الهائلة من الأمم السّابقة الّتي أهلكها الله سبحانه وتعالى بسبب كفرها وهي الّتي مكّن الله سبحانه وتعالى لها في الأرض بأكثر ممّا مكّن لكفّار مكّة وأعطاها من فضله بأكثر ممّا أعطى كفّار مكّة وأرسل سبحانه وتعالى عليها السّماء فهي دائمة المطر غزيرة القطر ، وكان ثمرة ذلك المطر الغزير أن تدفّقت الأنهار وعمّت الخيرات . وحينما كفرت تلك الأمم وأصرّت على كفرها أخذها الله تعالى المنتقم الجبّار أخذ عزيز مقتدر وأهلكها بذنوبها وأنشأ جلّ وعلا من بعد تلك الأمم أمماً أخرى وأرسل في كلّ أمّة نذيراً ليعلم جلّ وعلا علم ظهور كيف يعملون .

إنّ على كفّار مكّة ومن لفّ لفّهم أن يعودوا إلى جادّة الصّواب وإلاّ كان الأخذ شديداً والعذاب أليماً .

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

قرطاس : صحيفة[1] .

بيّن السّياق من ذي قبل أنّ كفّار مكّة قد كذّبوا بالحقّ لمّا جاءهم . وهذا الحقّ يصحّ أن يراد به القرآن الكريم والرّسول العظيم . وإنّ الآية الكريمة الّتي نحن بصددها تبيّن مدى تكذيب كفّار مكّة للقرآن الكريم . إنّ الله سبحانه وتعالى لو نزّل على المصطفى صلّى الله عليه وسلّم كتاباً مكتوباً في صحيفةٍ ومدوَّناً في رَقٍّ كما اقترحوه هم أنفسهم فلمسوا ذلك الكتاب بأيديهم ، وهذا اللّمس يمثّل في مثل هذه الحال أبعد مراحل التّثبّت من وجود الشّيء لقال الّذين كفروا إن هذا إلاّ سحرٌ واضح . وإلى مثل هذا التّعنّت أشار قوله تعالى في سورة الحِجْر[2] : ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السّماء فظلّوا فيه يَعْرُجون . لقالوا إنّما سكّرت أبصارنا بل نحن قومٌ مسحورون ﴾ .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٩٧/٧ .

(٢) الآية ١٤ ، ١٥ .

وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾

شاء الله سبحانه وتعالى بشأن الأمم المكذّبة رسل الله تعالى إليها بعد تحقيق ما اقترحت الأمم من آيات وإصرارها على التّكذيب أن يأخذها الله سبحانه وتعالى أخذ عزيزٍ مقتدر . ولم ينج من الأمم السّابقة المكذّبة إلاّ قوم يونس عليه السّلام . وإلى هذه الحقائق أشار قوله تعالى في سورة يونس[1] : ﴿ إنّ الّذين حقّت عليهم كلمة ربّك لايؤمنون . ولو جاءتهم كلّ آيةٍ حتّى يروا العذاب الأليم . فلولا كانت قريةٌ آمنت فنفعها إيمانها إلاّ قومَ يونُسَ لمّا آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى في الحياة الدّنيا ومتّعناهم إلى حين ﴾ وبشأن الأمّة المحمّديّة شاء الله تعالى ، إكراماً لخاتم النّبيّين ، ألاّ يعذّب كفّار مكّة بالاستئصال ، لأنّ المصطفى صلّى الله عليه وسلّم بين ظهرانيْهم ولأنّهم يستغفرون الله تعالى . وإلى ذلك أشار قوله تعالى في سورة الأنفال[2] : ﴿ وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم وماكان الله معذّبهم وهم يستغفرون ﴾ وقد شاء الله تعالى أن يكون عذاب المكذّبين له صلّى الله عليه وسلّم من أهل مكّة يوم القيامة ، ويومها سيكون العذاب أدهى وأمرّ . وإلى ذلك أشار قوله تعالى في سورة القمر[3] : ﴿ أكفّاركم خيرٌ من أولئكم أم لكم براءةٌ في الزُّبُر . أم يقولون نحن جميعٌ منتصِر . سَيُهْزم الجمع ويولّون الدّبر . بل السّاعةُ موعدهم والسّاعة أدهى وأمرّ ﴾ ولهذا حينما يطلب كفّار مكّة من المصطفى صلّى الله عليه وسلّم آياتٍ ويقترحون معجزاتٍ ماديّةً في مجموعها لايُلَبّى طلب القوم لأنّ السّنّة أن يُقْطَعَ دابر القوم المصرّين على الكفر بعد تحقّق ما طلبوا من الآيات وقد سبق في علمه جلّ وعلا أنّ كفّار مكّة لو تحقّق ما اقترحوا من آيات لن يؤمنوا ولم يَشأ الله تعالى استئصال شأفة كفّار مكّة إكراماً لخير الخلق صلّى الله عليه وسلّم الّذي يوجد بين ظهرانَيْهم .

ومن الآيات الكريمات الّتي نصّت على استئصال شأفة كفّار مكّة لو أصرّوا على كفرهم بعد تحقّق ما اقترحوا من معجزات وعلى عدم تلبية طلبهم وعلى كون القرآن الكريم معجزة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أمام أعينهم وفيها الغَناء الآيات الكريمات من سورة

---

(١) الآيات ٩٦ ــ ٩٨ .

(٢) الآية ٣٣ .

(٣) الآيات ٤٣ ــ ٤٦ .

الحجر . قال تعالى[1] : ﴿ وقالوا يا أيّها الّذين نُزِّل عليه الذّكر إنّك لمجنون . لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصّادقين . ما ننزّل الملائكة إلاّ بالحقّ وما كانوا إذاً منظرين . إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون ﴾ .

وإنّ الآية الكريمة الّتي نحن بصددها من هذا القبيل . إنّها تبيّن أنّ كفّار مكّة قالوا هلاّ أُنْزِل عليه صلّى الله عليه وسلّم ملكٌ من السّماء في صورته الأصليّة ليكون معه نذيرا . والآية الكريمة تبيّن كذلك أنّ ربّ العزّة لو أنزل الملك الّذي اقترحه كفّار مكّة لقُضِي الأمر بإهلاكهم وقطع دابرهم ثمّ لايُنْظرون لتوبة ولا يُمْهَلون لمعذرة فقد سبق إلى علمه جلّ وعلا إصرار كفّار مكّة على كفرهم بعد تحقّق ما اقترحوا من آيات . إنّ من مظاهر رحمة الله تعالى بكفّار مكّة ألاّ تُلبّى طلباتهم واقتراحاتهم .

وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾

وللبسنا عليهم ما يلبسون : وللبسنا عليهم ما يلبسونه على أنفسهم من حقيقة أمرك وصحّة برهانك وشاهدك على نبوّتك [2] أي ولخلطنا عليهم ما يخلطون [3] يقال منه : لبست عليهم الأمر ألبسه لبساً إذا خلطته عليهم . ولبست الثّوب ألبسه لبساً . واللّبوس اسم الثّياب[4] .

الآية الكريمة مترتّبةٌ على الآية الكريمة السّابقة عليها الّتي تقرّر أنّ الملك لو نزل وما آمنوا قُطِع دابرهم . وهذه الآية الكريمة تقرّر حقيقةً أخرى متعلّقةً بكون طبيعة البشر لاتطيق أن ترى الملك على صورته الحقيقيّة ، وهذا معناه أنّ الرّسول من الله تعالى لو كان مَلَكاً لجعله الله سبحانه وتعالى على صورة البشر كي يستطيع البشر أن يتعاملوا معه ويستفيدوا منه . فإذا كان الّذي أمام الكافرين من الملائكة على صورة البشر وكان رَجلاً فإنّهم سيقولون إنّ الّذي نراه أمامنا ليس ملكاً حسب طلبنا ولكنّه بشر ونحن إنّما نريد ملكاً .

وهكذا يدور الكافرون في دائرةٍ مفرغة ، يريدون ملكاً ويقال لهم هذا ملكٌ ولكنّه في صورة البشر رأفةً بكم فيقولون هذا بشرٌ وليس ملكاً ونحن إنّما نريد ملكاً . إنّ معنى قوله

---

(١) سورة الحجر ٦ ــ ٩ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٩٨/٧ .
(٣) تفسير ابن كثير ١٢٤/٢ .
(٤) تفسير الطّبريّ ٩٨/٧ .

تعالى : ﴿ وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾ ولو كان الملك على صورة رجل لالتبس الأمر عليهم كما يلبسون هم على أنفسهم في قبول رسالة البشر .

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾

فحاق بالّذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون : وقع بهم العذاب الّذي استهزءوا به[1] ونزل بهم[2] .

كذّب كفّار مكّة بالحقّ لمّا جاءهم المتمثّل في القرآن الكريم والرّسول العظيم . وقد بيّنت الآيات الكريمات السّابقات مدى تكذيب الكافرين للقرآن الكريم بحيث إنّهم لو نزل عليهم القرآن الكريم مكتوباً في قرطاسٍ ولمسوه بأيديهم لأصرّوا على إنكاره ، كما بيّنت مدى تكذيب الكافرين للرّسول العظيم بحيث إنهم يطلبون أن ينزل معه صلّى الله عليه وسلّم ملكٌ من السّماء يصدّقه ولا يكون الملك إلاّ رجلاً لذا لم يتحقّق طلبهم . وهذه الآية الكريمة تبيّن جانباً من جوانب تكذيب كفّار مكّة للحقّ لمّا جاءهم فقد استهزءوا به صلّى الله عليه وسلّم . وقد كفى الله سبحانه وتعالى حبيبه صلّى الله عليه وسلّم المستهزئين على نحو ما بيّنت الآية الكريمة الخامسة والتّسعون من سورة الحجر . قال تعالى : ﴿ إنّا كفيناك المستهزئين ﴾ .

وهذه الآية الكريمة تسرّي عن المصطفى صلّى الله عليه وسلّم فتبيّن أنّ الأمم السّابقة استهزأت برسل الله تعالى إليها فوقع بالّذين سخروا منهم العذاب الّذين كانوا يستهزئون به ويوشك أن يكون هذا المصير حظّ كفّار مكّة إن لم يكفّوا عن الاستهزاء وإن لم يعودوا إلى جادّة الصّواب .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٩٩/٧ .

(٢) الجلالين .

قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾

الآية الكريمة بمثابة الدّليل العمليّ على ما تضمّنته الآية الكريمة السّابقة الّتي قرّرت أنّ المستهزئين بالرّسل السّابقين قد حلّ بهم ما كانوا يستهزئون به من العذاب . إنّ الآية الكريمة تطلب من كفّار مكّة ومن لفّ لفّهم أن يسيروا في الأرض ثمّ ينظروا كيف كان عاقبة المكذّبين السّابقين وكيف دمّر الله سبحانه وتعالى عليهم . والمعروف أنّ كفّار مكّة في أسفارهم يمرّون بأولئك الّذين دمّر الله سبحانه وتعالى عليهم ليلاً أو نهارا . إنّ من هؤلاء قوم صالح الّذين تعتبر آثارهم من أرسخ الآثار . وإنّ من هؤلاء قوم لوط . وإلى هؤلاء أشار مثلاً قوله تعالى من سورة الصّافّات[1] : ﴿ وإنّ لوطاً لمن المرسلين . إذ نجّيناه وأهله أجمعين . إلاّ عجوزاً في الغابرين . ثمّ دمّرنا الآخرين . وإنّكم لتمرّون عليهم مصبحين وباللّيل . أفلا تعقلون ﴾ .

---

(١) الآيات ١٣٣ــ ١٣٨ .

إرشاد للنبي صلى الله عليه وسلم وشهادة من الله تعالى له
ودعوة إلى الإيمان
الآيات: ١٢ – ٢١

قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾

تأمر الآية الكريمة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أن يقول لكفّار مكّة ومن لفّ لفّهم : لمَنْ ما في السّماوات والأرض مِلْكاً وخَلْقاً وعبيدا ، كما تأمره أن يقول لهم الجواب : ﴿ قل لله ﴾ والمعنى أنّ لله ملك السّماوات والأرض ، إن لم يقولوا ذلك فلا جواب سواه .

وإنّ رحمة الله سبحانه وتعالى الّتي تسبق غضبه وتغلبه لتتجلّى في الآية الكريمة في القول : ﴿ كتب على نفسه الرّحمة ﴾ إنّ هؤلاء الكفّار المشركين مع الله تعالى سواه تبيّن لهم الآية الكريمة رحمة الله سبحانه وتعالى الّتي وسعت كلّ شيءٍ والّتي يصحّ أن تشملهم إن هم هجروا الكفر واعتنقوا الإيمان وتابوا إلى الله توبةً نصوحاً . وهكذا يتبيّن أنّ رحمة الله تعالى تتجلّى في لطف دعوة الكافرين إلى الإسلام على أمل أن تشملهم رحمة الله تعالى . وإنّ معنى الجزئيّة الكريمة : ﴿ كتب على نفسه الرّحمة ﴾ يبيّنه الحديث الّذي ثبت في الصّحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : إنّ الله لمّا خلق الخلق كتب كتاباً عنده فوق العرش : إنّ رحمتي تغلب غضبي[1] وفي رواية : إنّ رحمتي سبقت غضبي[2] .

وتردف الرّحمة في الآية الكريمة بتقرير يوم البعث الّذي يقسم الله سبحانه وتعالى في حقّه بأنّه سيجمع الخلائق من أجل الحساب ، الثّواب أو العقاب ، في ذلك اليوم الذّي لا ريب فيه .

إنّ الرّحمة والثّواب من نصيب المؤمنين في ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود ، وإنّ الخسران والعذاب من نصيب الّذين لايؤمنون . وإنّ الجزئيّة الأخيرة في الآية الكريمة قرّرت أنّ الّذين خسروا أنفسهم في ذلك اليوم هم الّذين لايؤمنون .

---

(١) تفسير ابن كثير ١٢٥/٢ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٩٩/٧ .

وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾

قرّرت الآية الكريمة السّابقة أنّ لله تعالى ما في السّماوات والأرض ملكاً وخلقاً وعبيدا . وهذه الآية الكريمة التّالية تقرّر أنّ لله سبحانه وتعالى كلّ ما سكن في اللّيل والنّهار وحلّ فيهما . ولا يخرج شيءٌ عن كونه في ليلٍ أو نهار . وإنّ كلّ ما شمله ليلٌ أو نهار لله سبحانه وتعالى ، فهم عباده وخلقه وتحت ملكه وتدبيره .

وانظر إلى القول : ﴿ وهو السّميع العليم ﴾ الّذي يقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى يسمع كلّ صوت علا أو خفت ، ويعلم كلّ فعلٍ جلّ أو صغر ، ظهر أو خفي .

وإنّ القول :﴿ سكن ﴾الّذي يرتبط به نوعٌ من السّكون والهدوء والصّمت والهمس قوّةٌ للسّمع . وإنّ السّمع قرين العلم فمن الثابت في حقّنا نحن البشر أنّ السّمع من جانبنا أقوى أسباب المعرفة والعلم .

ومن المعروف أنّ الأذن تعمل في الظّلام كما تعمل في النّور وهكذا يتقدّم في الذّكر كلّ من اللّيل وصفة السّمع ومن المعروف كذلك أنّ ضوء النّهار مسعفٌ على العلم بأكثر من ظلمة اللّيل وقد نبّه على ذلك مجيء كلٍّ من النّهار وصفة العلم في موضعين متماثلين في الآية الكريمة .

وهكذا يتبيّن التّرابط الدّقيق بين أجزاء الآية الكريمة والنّسق البديع الّذي تأتي وفقه الجزئيّات .

قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾

قل أغير الله أتّخذ وليًّا : أستنصره وأستعينه على النّوائب والحوادث[1]

فاطرِ السّماوات والأرض : مبتدعهما ومبتدئهما وخالقهما[2] .

وهو يطعم ولا يُطْعم : وهو يرزق خلقه ولا يُرْزق[3] .

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٠١/٧ . (٢) تفسير الطّبريّ ١٠١/٧ . (٣) تفسير الطّبريّ ١٠٢/٧ .

بعد أن قرّر السّياق أنّ لله ما في السّماوات والأرض وما سكن في اللّيل والنّهار أمرت الآية الكريمة الّتي نحن بصددها المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أن يقول لكافري مكّة ومن شاكلهم في هيئة الاستفهام الإنكاريّ : أغير الله تعالى خالقي وخالق كلّ شيءٍ أتّخذ معبوداً أعبد ووليّاً أقصد . أأترك عبادة الله تعالى فاطر السّماوات والأرض وموجودهما من العدم وعلى غير مثالٍ سابق وهو جلّ وعلا الّذي يرزق كلّ دابّة ولا يحتاج إلى أحدٍ من خلقه ، أأترك عبادة الله تعالى ذي الصّفات العُلَى إلى عبادة ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني شيئاً ؟ .

والآية الكريمة تجيب على الفور وتصحّح خطأ كفّار مكّة ومن شاكلهم . فها هي ذي الآية الكريمة تأمر المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أن يقول لكفّار مكّة وسواهم إنّي أمرني ربّي أن أكون أوّل من أسلم من هذه الأمّة لله ربّ العالمين واهتدى إلى الصّراط المستقيم وأمرني ربّي ألاّ أكون من المشركين بل من الموحّدين .

قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾

مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾

يستمرّ السّياق في توجيه المصطفى صلّى الله عليه وسلّم وتلقينه الجواب على الكافرين الّذين يدعون الآخرين إلى كفرهم ويصدّون عن سبيل الله تعالى . إنّ الآية الكريمة الأولى تأمر المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أن يقول لكفّار مكّة إنّي أخاف إن عصيت ربّي فأشركت معه في العبادة غيره عذاب يومٍ عظيم هو يوم القيامة الّذي يحاسب فيه الإنسان ويثاب و يعاقب على مثقال الذّرّة من الخير أو الشّرّ الّذي عمل .

والآية الكريمة التّالية المترتّبة على السابقة تقرّر أنّ من صُرِف عنه عذاب ذلك اليوم العظيم فقد رحمه الله سبحانه وتعالى وذلك حقّاً هو الفوز المبين والنّجاح العظيم .

وإنّ النّصّ على رحمة الله تعالى في الآية الكريمة يذكّرنا بما جاء في آيةٍ كريمةٍ سابقة : ﴿ كتب على نفسه الرّحمة ﴾ .

وإنّ النّصّ على كون الفوز العظيم يتحقّق بصرف الله سبحانه العذاب عن عبده في ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود يذكّرنا بمثل قوله عزّ من قائل في سورة آل عمران[1] :

(١) الآية ١٨٥ .

﴿ كلّ نفسٍ ذائقة الموت . وإنّما تُوَفَّوْن أجوركم يوم القيامة . فمن زُحْزِح عن النّار وأُدْخل الجنّة فقد فاز . وما الحياة الدّنيا إلاّ متاعُ الغرور ﴾ .

وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

الخطاب في الآية الكريمة للمصطفى صلّى الله عليه وسلّم أساساً ولكلّ إنسانٍ وراء ذلك . والآية الكريمة تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى إذا أصابك أيّها الإنسان بضرٍّ وشدّة كمرضٍ وفقر فلا كاشف لذلك الضُرّ إلاّ هو جلّ وعلا . وإن يصبك جلّ وعلا بخير من صحّةٍ وسعة رزق وجاهٍ إلى غير ذلك من نعم الله تعالى فإنّه جلّ وعلا وحده لاشريك له هو القدير على كلّ شيءٍ ومن ذلك أن يوصل الخير إليك إذا شاء فلا يستطيع أحدٌ أن يمنعه عنك أو أن يصرفه إلى سواك .

إنّ الله سبحانه وتعالى القدير على كلّ شيءٍ هو الخليق بأن يعبد وحده لاشريك له أمّا الآلهة المزعومة فإنّها عاجزةٌ عن دفع الضرّ عن أنفسها وعن جلب النّفع إليها وهي عن فعل شيءٍ من ذلك لغيرها أعجز فكيف يصحّ أن تُعْبد وأن تتّخذ ندّاً لله تعالى الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾

أثبتت الآية الكريمة السّابقة القدرة المطلقة للذّات العلّية . وهذه الآية الكريمة تثبت للذّات العلّية صفة أبعد من صفة القدرة ألا وهي صفة القهر فوق العباد . إنّ الله سبحانه وتعالى القادر القهّار هو الّذي عنت الوجوه لعزّته وذلّت الرّقاب لقدرته وأذعنت الجبابرة لقهره . كلّ الخلائق ، من أسلم ومن أبى ، مذعنٌ لأمره ، خاضعٌ لسلطانه ، ذليلٌ لقهره ، متواضعٌ لعظمته ، مستكينٌ لحكمه . إن لم يكن بلسان الحال والمقال فبلسان الحال . وما أشدّ تواتر الأنباء عن جبابرة الأرض الّذين حينما أوصدت في وجوههم كلّ السّبل ما وجدوا إلاّ السّبيل إلى الله تعالى ولكن بعد فوات الأوان .

وإنّ قهر الله تعالى المستعلى على عباده تحفّه الحكمة والخبرة . إنّ كلّ قولٍ وفعل

حكمـة ، فلا لهو ولا عبث : ﴿ إنّا كلَّ شيءٍ خلقناه بقدر ﴾(١) والله سبحانـه وتعـالى هو الخبير ببواطن الأمور كظاهرهـا فلا يخفـى عليـه جلّ وعـلا شيءٌ في الأرض ولا في السّمـاء ، جلّ أو دقّ ، كبر أو صغر ، ظهر أو اختفى . وهو جلّ وعلا﴿ لايُسأل عمّـا يَفْعَـل وهـم يُسْألون ﴾(٢) .

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (١٩)

لازالت الدروس القرآنيّة تُلقى على المصطفـى صلّـى الله عليـه وسلّـم . فهـا هي ذي الآية الكريمة تأمره عليه الصّلاة والسّلام أن يقول لكفّار مكّة ومن لفّ لفّهم من المكذّبين له عليـه الصّلاة والسّلام : أيّ الأشيـاء أكبر شهـادةً وأعظـم ؟ وتجيب الآية الكـريمة على السّؤال : قل يا محمّد الله أكبر شهـادةً ، لأنّ هذا هو الجواب ولا جواب غيره . وتقـرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه الأعظم شهادةً هو الشّهيد بيني وبينكم بأنّي رسول الله تعالى إليكـم وإلى النّاس كافّة .

ويستمرّ عليه الصّلاة والسّلام في ذكر أبعـاد الحجّـة الّتـي لُقِنّهـا ، فهـا هو ذا عليـه الصّلاة والسّلام يقرّر أنّ الله سبحانه وتعـالى قد أُوحـى إليـه صلّـى الله عليـه وسلّـم القـرآن الكريم المعجـزة الـكبرى الخالـدة إلى يوم الدّيـن لينـذر المصطفـى صلى الله عليـه وسلـم بهذا القرآن كفّار مكّة ومن لفّ لفّهم من الذين التقـى بهم عليـه الصّلاة والسّلام ولينـذر به من بلغه القرآن الكريم من الإنس والجنّ .

إنّ الله سبحانه وتعالى الّذي لايجوز عليه ما يجوز على البشر في أداء الشّهـادة ، فقـد يَنْقُص البشر في الشّهادة ويزيدون ، يخطئون ويصيبون ، يذكـرون وينسون ، إنّ الله سبحانـه وتعالى هوّ الشّهيد بأنّ محمّد بن عبدالله صلّى الله عليه وسلّم رسول ربّ العالمين .

---

(١) سورة القمر ٤٩ .

(٢) سورة الأنبياء ٢٣ .

ولمّا كان جوّ الشّهادة هو المسيطر على الآية الكريمة ولمّا كان المقصودون من السّؤال والجواب هم الكافرين المشركين مع الله تعالى غيره ، فقد كان ثمّة سؤالٌ إنكاريٌّ لأولئك المشركين : أئنّكم أيّها المشركون لتشهدون أنّ مع الله سبحانه وتعالى آلهةً أخرى ؟ ويؤمر المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أن يقول لأولئك المشركين : أما أنا فلا أشهد أنّ مع الله تعالى آلهةً أخرى بل أشهد أنّ الله سبحانه وتعالى هو الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . وهذا المعنى العميق المفهوم من القول :﴿ لا أشهد ﴾ يقوّيه قوله عزّ من قائل في الآية الكريمة : ﴿ قل إنّما هو إلهٌ واحدٌ وإنّني بريءٌ ممّا تشركون ﴾ إنّنا بصدد إثباتٍ لوحدانيّة الله تعالى وبصدد براءة ممّا يشرك به الكافرون مع الله تعالى من آلهةٍ أخرى .

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾

ثمّة وجه شبه بين عجز هذه الآية الكريمة وعجز الآية الكريمة الثانية عشرة . وذلك في القول : ﴿ الّذين خسروا أنفسهم فلا يؤمنون ﴾ والآية الكريمة الثّانية عشرة تدعو في لطفٍ إلى الإيمان بالله تعالى وتقرّر أنّ الّذين أشركوا مع الله تعالى غيره هم الخاسرون . وإنّ الآية الكريمة الّتي نحن بصددها تتحدّث عن أهل الكتاب وتخلع عليهم صفة الخسران بسبب عدم إيمانهم . والآية الكريمة تقرّر أنّ الّذين آتاهم الله سبحانه وتعالى الكتاب من اليهود والنّصارى يعرفون محمّداً صلّى الله عليه وسلّم وصدقه كما يعرفون أبناءهم لأنّ نعته عليه الصّلاة والسّلام مكتوبٌ في كلٍّ من التّوراة الّتي أوحاها الله تعالى لموسى عليه السّلام والإنجيل الّذي أوحاه الله تعالى لعيسى عليه السّلام .

إنّ أهل الكتاب في مجموعهم لم يتّبعوا الرّسول النّبيّ الأمّيّ الّذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم لهذا هم اشتركوا مع المشركين في الخسران المبين بسبب عدم إيمانهم وبسبب تكذيبهم للحقّ المتمثّل في الرّسول العظيم والقرآن الكريم .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾

نعى السّياق من ذي قبل على المشركين وعلى كافري أهل الكتاب ، اليهود والنّصارى

عدم إيمانهم ووصفهم بأنّهم الخاسرون حقّاً . وإنّما انطلق هؤلاء وأولئك من نقطة التّكذيب لآيات الله تعالى . وهذا المعنى بيّنته الآية الكريمة الّتي نحن بصددها وذلك في القول :﴿ أو كذّب بآياته ﴾ وأضافت الجديد وأصدرت الحكم . أمّا الجديد الّذي أضافته فهو تقريرها أنّه لا أحد أظلم ممّن افترى على الله كذباً وذلك في حقّ مشركي العرب مثلاً الإشراك مع الله تعالى غيره والزّعم أنّ الملائكة بنات الله ، وفي حقّ كافري أهل الكتاب الزّعم بأنّ لله سبحانه وتعالى صاحبةً وولدا . ويلحق بهؤلاء الكذبة الزّاعمون أنّ الله سبحانه وتعالى قد أوحى إليهم بينما لم يوح الله تعالى لهم شيئاً .

وأمّا الحكم الصّادر في حقّ هؤلاء الظّالمين فهو في القول :﴿ إنه لا يُفْلح الظّالمون ﴾ إنّ الظّالم الّذي لايفلح إنّما يخسر . وبهذا تعمّق الآية الكريمة معنى الخسران في حقّ الكافرين . وهذا الحكم يشمل كلّ الظّالمين الّذين أشركوا مع الله تعالى غيره والّذين زعموا أنّ له بناتٍ وولداً وصاحبة : ﴿ كَبُرَتْ كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا ﴾[1] .

---

(١) سورة الكهف ٥ .

بَعْضُ أَهْوَالِ يَوْمِ القِيَامَةِ
الَّتِي يُشَاهِدُهَا المُكَذِّبُونَ
الآيات: ٢٢ – ٣٢

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾

ثمّ لم تكن فتنتهم : عن ابن عبّاس أي حجّتهم . وقال عطاء الخراساني عنه : أي معذرتهم وكذا قال قتادة . وقال ابن جريج عن ابن عبّاس : أي قيلهم وكذا قال الضّحّاك . وقال عطاء الخراساني : ثمّ لم تكن فتنتهم : بليّتهم حين ابتلوا[1] وقال الطبريّ[2] : « والصّواب من القول في ذلك أن يقال : معناه ثمّ لم يكن قيلهم عند فتنتنا إيّاهم اعتذاراً ممّا سلف منهم من الشّرك بالله إلاّ أن قالوا » .

أنظر : معنى النّظر في هذا الموضع النّظر بالقلب لا النّظر بالبصر . وإنّما معناه تبيّن فاعلم كيف كذبوا في الآخرة[3] .

وضلّ عنهم : وغاب عنهم[4] وفارقهم الأنداد والأصنام وتبرّءوا منها فسلكوا غير سبيلها لأنّها هلكت[5] .

نصّ السّياق من ذي قبل على أنّ الّذين خسروا أنفسهم هم الّذين لايؤمنون وأنّ الظّالمين الّذين لايفلحون هم الّذين يفترون على الله كذباً والّذين يكذّبون بآيات الله تعالى . ويتحوّل السّياق إلى تعداد خسائر الّذين لايؤمنون في يوم القيامة المجموع له النّاس المشهود .

إنّ الآية الكريمة الأولى تبيّن أنّ ربّ العزّة سوف يحشر يوم القيامة الظّالمين جميعاً المشركين مع الله تعالى غيره ثمّ يُسأل الذين أشركوا عن شركائهم الّذين كانوا يزعمون في الحياة الدّنيا أنّهم شركاء لله تعالى وأنداد .

---

(١) تفسير ابن كثير ١٢٧/٢ .
(٢) تفسير الطّبريّ ١٠٦/٧ .
(٣) تفسير الطّبريّ ١٠٧/٧ .
(٤) الجلالين .
(٥) تفسير الطّبريّ ١٠٧/٧ .

وإنّ الآية الكريمة الثّانية تبيّن أنّ أولئك المشركين وقد خذلهم معبودوهم من دون الله تعالى وغابوا عنهم لم تكن معذرتهم تجاه التّجربة المريرة والسّؤال الصّعب والخذلان الرّهيب والموقف العصيب إلاّ أن قالوا والله ربّنا ما كنّا مشركين ظنّاً منهم أنّ التّوبة تقبل منهم .

وإنّ الآية الكريمة الثّالثة تخاطب المصطفى صلّى الله عليه وسلم بالقول : انظر يا محمّد بعقلك وتدبر تأمّل يا محمّد ببصيرتك وتفكّر كيف يكذب المجرمون على أنفسهم في ذلك اليوم العظيم . وإنّ ممّا زاد من حسرة القوم وألمهم أنّ الآلهة المزعومة الّتي افتروها في الحياة الدّنيا واختلقوها قد ضلّت عنهم وغابت ، سلكت طريقاً غير طريقهم وانزوت .

وبشأن هذه الآلهة المدّعاة المعبودة من دون الله تعالى ظلماً وعدواناً نستذكر في حقّها إن كانت راضية عن ذلك الضّلال داعيةً إليه وتعقل ، أو إن كانت غير عاقلة ، كما نستذكر في حقّ المشركين قوله تعالى في سورة الأنبياء[1] : ﴿ إنّكم وما تعبدون من دون الله حَصَبُ جهنّم أنتم لها واردون . لو كان هؤلاء آلهةً ما وردوها وكلٌّ فيها خالدون . لهم فيها زفيرٌ وهم فيها لايسمعون ﴾ .

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾

ومنهم من يستمع إليك : ومنهم من يستمع القرآن منك ويستمع ما تدعوه إليه من توحيد ربّك وأمره ونهيه[2] .

وجعلنا على قلوبهم أكنّةً : أغطية[3] جمع كنان وهو الغطاء مثل سنان وأسنّة . يقال منه : أكننت الشّيء في نفسي بالألف وكننت الشّيء إذا غطّيته . ومن ذلك بيضٌ مكنون[4] .

أن يفقهوه : لئلاّ يفقهوا القرآن[5] .

---

(١) الآيات ٩٨ ــ ١٠٠ .
(٢) تفسير الطّبريّ ١٠٨/٧ .
(٣) تفسير ابن كثير ١٢٧/٢ .
(٤) تفسير الطّبريّ ١٠٨/٧ .
(٥) تفسير ابن كثير ١٢٧/٢ .

وفي آذانهم وقراً : ثقلاً وصمماً[1] عن السّماع النّافع لهم[2].

يجادلونك : يحاجّونك ويناظرونك في الحقّ بالباطل[3] ويخاصمونك[4] .

إن هذا إلاّ أساطير الأوّلين : أي ما هذا إلاّ أساطير الأوّلين .

والأساطير جمع إسطارة وأسطورة مثل أُفكوكة وأُضحوكة[5] .

تقرّر الآية الكريمة أنّ من هؤلاء الكافرين المشركين مع الله تعالى سواه من يستمع إلى المصطفى صلّى الله عليه وسلّم حينما يتلو القرآن الكريم وحينما يشدو لسانه العطر عليه الصّلاة والسّلام بسنّته المطهّرة . وبما أنّ القوم ليسوا مستعدّين لسماع ما يسيل من بين شفتي المصطفى صلّى الله عليه وسلّم من أحسن الحديث سماع تدبرّ ، ولمّا كانت قلوب القوم الّتي في صدورهم عليها أقفالها فقد زادهم الله سبحانه وتعالى صمماً إلى صممهم وعمىً إلى عمى قلوبهم وبصائرهم .

وقد عبّرت الآية الكريمة عن ذلك بالقول : ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنّةً أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً ﴾ والمعنى أنّ الله سبحانه وتعالى جعل على قلوبهم أغطيةً لئلاّ يفقهوا القرآن الكريم جزاء انصراف قلوبهم عنه أساساً ، وجعل في آذانهم ثقلاً وصمماً عن سماع القرآن الكريم سماع تدبّر بسبب إعراضهم عن سماع القرآن الكريم أصلاً . أليس هؤلاء هم الّذين جاء عنهم مثل قوله تعالى[6] : ﴿ وقال الّذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والْغَوْا فيه لعلّكم تغلبون ﴾ وليس الإعراض عن سماع القرآن الكريم إلاّ الثّمرة النّكدة لانصراف القلب عنه وقد زاد الله سبحانه وتعالى تلك القلوب المنصرفة عن القرآن الكريم انصرافاً وقد قال عزّ من قائل في سورة التّوبة[7] : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعضٍ هل يراكم من أحدٍ ثمّ انصرفوا . صرف الله قلوبهم بأنّهم قومٌ لايفقهون ﴾ .

وأولئك الكافرون إن يروا وراء ذلك كلّ آيةٍ من آيات الله تعالى الدّالّة على قدرته عزّ وجلّ ، في القرآن الكريم أو في ملكوت الله تعالى فإنّهم لايؤمنون بها. ثمّ هم يجادلون المصطفى صلّى الله عليه وسلّم ويخاصمونه ويحاجّونه صلّى الله عليه وسلّم في الحقّ بالباطل . وأخيراً

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٠٨/٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ١٢٧/٢ .

(٣) تفسير ابن كثير ١٢٧/٢ .

(٤) تفسير الطّبريّ ١٠٨/٧ .

(٥) تفسير الطّبريّ ١٠٨/٧ .

(٦) سورة فصّلت ٢٦ .

(٧) الآية ١٢٧ .

هم يعلنون على رءوس الأشهاد بأنّ القرآن الكريم ليس سوى أساطير الأوّلين الّتي اكتتبها صلّى الله عليه وسلّم فهي تملى عليه بكرةً وأصيلا . : ﴿ كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا ﴾[1] .

وإنّ هاتين الآيتين الكريمتين من سورة الإسراء[2] تعمّقان بعض المعاني الّتي جاءت بها الآية الكريمة وتضيفان جديدا . قال تعالى : ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الّذين لايؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً . وجعلنا على قلوبهم أكنّةً أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا . وإذا ذكرت ربّك في القرآن وحده ولّوْا على أدبارهم نفورا ﴾ .

وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

وهم ينهون عنه وينأون عنه : عن ابن عبّاس يعني ينهون النّاس عن محمّد أن يؤمنوا به وينأون عنه يعني يتباعدون عنه[3] .

وإن يهلكون إلاّ أنفسهم : وما يهلكون إلاّ أنفسهم[4] .

حديث الآية الكريمة السّابقة شاملٌ لكلٍّ من النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم والقرآن الكريم الموحي إليه . وهذه الآية الكريمة التّالية تقرّر أنّ أولئك الكافرين ينهون عنه وينأون عنه . ويصحّ أن يتّجه الضّمير إلى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم خاصّةً وأنّ الخطاب يتّجه في الآيات الكريمات السّابقات واللّاحقات إلى المصطفى صلّى الله عليه وسلّم كما يصحّ أن يتّجه إلى القرآن الكريم لأنّ نهي الكافرين للآخرين وصدّهم ولأنّ نأي الكافرين أنفسِهِمْ وإعراضهم يشمل كلاًّ من المصطفى صلّى الله عليه وسلّم والقرآن الكريم .

وتقرّر الآية الكريمة في عجزها أنّ أولئك الكافرين الصّادّين غيرهم عن الصّراط المستقيم ما يهلكون إلاّ أنفسهم لأنّ وبال أعمالهم السّيّئة عائدٌ إليهم . والعجيب في أمر هؤلاء الكافرين أنّهم لايشعرون . وحينما نتبيّن أنّ الآية الكريمة تنزّل الكافرين منزلة من لايشعر بالأذى الملامس لجلده الحالّ منه منزلة شعره من جسده ندرك إلى أيّ دركٍ من التّبلّد انحطّ إليه إحساس الكافرين .

---

(١) سورة الكهف ٥ .
(٢) الآية ٤٥ ، ٤٦ .
(٣) تفسير الطّبريّ ١٠٩/٧ .
(٤) تفسير الطّبريّ ١١٠/٧ .

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾

الخطاب للمصطفى صلّى الله عليه وسلّم . والمعنى ولو ترى يا محمّد إذ وُقِف الكافرون المكذّبون وحبسوا على النّار ورأوا بأعينهم تلك الأهوال فقالوا خوفاً وهلعاً تألّماً وجزعاً ياليتنا نُردّ إلى الحياة الدّنيا حياة العمل والكدح ولا نكذّب بآيات ربّنا بل نصدّقها ونكون من المؤمنين لا الكافرين الطّائعين لا العاصين لو ترى ذلك يا محمّد « لرأيت أمراً عظيما »[1] فجواب لو إذن محذوف .

بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾

تُضْرِب الآية الكريمة عن تمنّي الكافرين العودة إلى الحياة الدّنيا كي يؤمنوا بالله تعالى وبرسوله صلّى الله عليه وسلّم وتقرّر أنّ أولئك الكافرين قد بدا لهم ما كانوا يكتمون من قبل وظهر ما كانوا يخفون ممّا أشارت إليه الآية الكريمة الثالثة والعشرون من هذه السّورة : ﴿ ثمّ لم تكن فتنتُهُمْ إلاّ أن قالوا واللّهِ ربِّنا ما كنّا مشركين ﴾ فقد شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم واعترفت أيديهم وشهدت أرجلهم بما كانوا يكسبون .

وإنّ الله سبحانه وتعالى الّذي يعلم السّرّ وأخفى ويعلم ما توسوس به نفس كلّ إنسانٍ ليبيّن أنّ أولئك الكافرين لو فُرِض أنّهم ردّوا إلى الحياة الدّنيا لعادوا لما نُهوا عنه من التّكذيب والشّرك وإنّهم لكاذبون في تمنّيهم لأنّه تمنٍّ بدافع الخوف من العذاب وليس بدافع الإيمان والرّغبة في الدّخول في دين الإسلام .

وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾

تبيّن الآية ماذا كان يقول أولئك الكافرون المكذّبون للرّسول الكريم والقرآن العظيم : ما هي إلاّ حياتنا الدّنيا نأكل ونتمتّع وليس ثمّة بعثٌ ولا نشور ، ثوابٌ ولا عقاب . وهذا المعنى عبّرت عنه في حقّ كفّار مكّة الآية الكريمة من سورة الجاثية[1] : ﴿ وقالوا ما هي إلاّ حياتُنا الدّنيا نموتُ ونحيا وما يُهْلِكنا إلاّ الدّهرُ وما لهم بذلك من علمٍ إنْ هم إلاّ يظنّون ﴾ .

---

(١) الجلالين .

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ

ولو ترى إذ وُقِفوا على ربّهم : إذ عُرِضوا[1] وأوقفوا بين يديه[2]

قرّرت الآية الكريمة السّابقة إنكار الكافرين للبعث بعد الموت . وهذه الآية الكريمة التّالية الّتي تبدأ على غرار آيةٍ سابقة بالقول :﴿ ولو ترى ﴾تقرّر البعث بعد الموت والخزى الّذي يحلّ بالكافرين يوم القيامة والسّوء الّذي يلحق بهم . إنّ الآية الكريمة تبدأ بلو وجوابها محذوفٌ كسابقه والتّقدير : « لرأيت أمراً عظيماً » إنّ الكافرين بعد أن بعثوا وبعد أن يقفوا بين يدي أحكم الحاكمين يقول جلّ وعلا لهم على لسان الملائكة : أليس هذا البعث بالحقّ ؟ قالوا بلى وربّنا إنّه لحقّ وها نحن أولاء نحيا ذلك الحقّ ونعيش ذلك البعث .

ويقال لأولئك الكافرين المنكرين للبعث : ذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . إنّ العذاب الأليم عقابٌ لكم بسبب إنكاركم البعث وبسبب أعمالكم السّيّئة .

قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾

بغتة : فجأةً من غير علم[3] .

يا حسرتنا : يا ندامتنا[4] .

على ما فرّطنا فيها : على ما ضيّعنا فيها يعني في صفقتهم تلك[5] وهذا الضّمير يحتمل عوده على الحياة وعلى الأعمال وعلى الدّار الآخرة أي في أمرها[6]

---

(١) الجلالين .
(٢) تفسير ابن كثير ١٢٨/٢ .
(٣) تفسير الطّبريّ ١١٣/٧ .
(٤) تفسير الطّبريّ ١١٣/٧ .
(٥) تفسير الطّبريّ ١١٣/٧ .
(٦) تفسير ابن كثير ١٢٨/٢ .

أوزارهم : آثامهم وذنوبهم واحدها وزر[1] .

ألا ساء ما يزرون : ألا ساء الوزر الّذي يزرون أي الإثم الّذي يأثمونه كفرهم بربّهم[2] أي يحملون . وقال قتادة : يعملون[3] .

وبئس ما يحملونه حملهم ذلك[4] .

تقرّر الآية الكريمة أنّ الّذين كذّبوا بلقاء الآخرة وجحدوا يوم القيامة وأنكروا البعث والحساب قد خسروا حقّاً لأنّهم بإنكارهم يوم القيامة ما استعدّوا له بل على العكس من ذلك أكلوا وتمتّعوا ولعبوا وألهاهم الأمل حتّى جاءهم الموت وجاءتهم بعد ذلك السّاعة ، ومن كان حيّاً منهم وقت قيام السّاعة جاءته السّاعة بغتة ، ولا يملكون جميعاً سوى الحسرة والنّدامة حيث لاينفع شيءٌ من ذلك ولا يملكون إلاّ نداء الحسرة وكأنّهم في ندائهم لها يقولون : أيّتها الحسرة هذا أوانك فاحضري بسبب تفريطنا في الحياة الدّنيا وتقصيرنا عن عمل الصّالحات فيها وإفراطنا في عمل السّيّئات وإسرافنا على أنفسنا . إنّهم يقولون كلّ ذلك وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم وذنوبهم وآثامهم الّتي ارتكبوها في الحياة الدّنيا كي ينالوا العقاب عليها .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ تلك الأوزار الّتي يحملونها على ظهورهم بئس الأوزار والأحمال لأنّها ثقيلة كريهة منتنة .

وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾

فُتن الكافرون بالحياة الدّنيا وذُهلوا عن يوم القيامة الّذي أنكروه . والآية الكريمة تبيّن أنّ هذه الحياة الدّنيا ليست سوى لعبٍ ولهو . ويصحّ أن نفهم أنّ الجدّ في هذه الحياة الدّنيا إن لم يرد به صاحبه وجه ربّه الأعلى كان ضرباً من اللّعب وإن لم يكن جدّاً كان ضرباً من اللّهو والعبث . ويخرج عن دائرتي اللّعب واللّهو العمل الصّالح بمقياس الشّرع والّذي يريد به صاحبه وجه ربّه الأعلى ، كي ينال عليه يوم القيامة الجزاء الأوفى . إنّ الدّار الآخرة خيرٌ للّذين يتّقون الله سبحانه وتعالى وأحسن في حقّهم من الحياة الأولى . وبما أنّ الحياة الأولى

---

(١) تفسير الطّبريّ ٧/١١٤ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٧ /١١٤ .
(٣) تفسير ابن كثير ٢/١٢٩ .
(٤) الجلالين .

قصيرةٌ ومليئةٌ بالمنغّصات بينما الحياة الأخرى خالدة وخاليةٌ من المنغّصات في حقّ المؤمنين المتّقين الّذين يشملهم الله تعالى برحمته وبفضله لذا كان في ختام الآية الكريمة القول : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ ؟ إنّ على كلّ إنسانٍ أن يستخدم نعمة العقل استعمالاً صحيحاً فمن كان في الطّريق الصّحيح واصل السّير ومن كان في الطّريق الخاطىء هجر وعدل .

تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم
وإنذار للمشركين وتبشير للمؤمنين
الآيات : ٣٣ - ٤٩

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾

قد هنا للتّحقيق[1] .

تسلّى الآية الكريمة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم الّذي كادت نفسه تذهب حسرات لتكذيب قومه له عليه الصّلاة والسّلام . والآية الكريمة تقرّر انّ الله سبحانه وتعالى قد أحاط علماً بمدى الحُزْن الّذي ألمّ بك بسبب قول المشركين عنك ما يعلمون أنّهم غير صادقين فيه . وإنّ الآية الكريمة تبيّن للمصطفى صلّى الله عليه وسلّم أنّ كفّار مكّة ومن لفّ لفّهم لا يكذّبونك في أعماق قلوبهم لأنّهم موقنون في قرارة نفوسهم أنك صادقٌ في كلّ ما تقول وأنّك رسول ربّ العالمين ، ولكنّ القوم في الحقيقة ، وهنا تستعمل الآية الكريمة في حقّ المكذّبين صفة الظّلم وليس اسم الضّمير العائد إليهم فيقال ﴿ ولكنّ الظّالمين ﴾ ولايقال ولكنّهم . ولكنّ القوم في الحقيقة بآيات الله تعالى يجحدون ، وللقرآن الكريم منكرون ، وتبعاً لكلّ ذلك هم لك أيها الرّسول العظيم مكذّبون .

وهذا الموقف من كفّار مكّة ومن لفّ لفّهم من الظّالمين يذكّرنا بفرعون وقومه وموقفهم من موسى عليه السّلام . وقد جاء في هذا الشّأن في سورة النّمل[2] قوله عزّ من قائل : ﴿ فلمّا جاءتهم آياتُنا مبصرةً قالوا هذا سحرٌ مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوّاً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ .

وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾

الآية الكريمة كسابقتها هي في تسلية المصطفى صلّى الله عليه وسلّم والتّسرية عنه . إنّها تقرّر في خطابها للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّ أقوام الرّسل السّابقين قد كذّبوهم

---

(١) الجلالين .

(٢) الآية ١٣ ، ١٤ .

فصبروا على ما كذّبوا وأوذوا من قبل أقوامهم حتّى أتاهم نصر الله تعالى . ويلاحظ استعمال جملة أتى في القول :﴿ حتّى أتاهم نصرنا ﴾وإنّما تستعمل هذه الجملة دليلاً على البعد ، وهو هنا بعدٌ زمانيّ ، وممّا يظهر إتيان النّصر أشدّ بطئاً استعجال المؤمنين له بل المرسلين وفي هذا المعنى جاء قوله تعالى في سورة يوسف[1] : ﴿ حتّى إذا استيأس الرّسل وظنّوا أنّهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فَنُجّي من نشاء ولا يُرَدُّ بأسُنا عن القوم المجرمين ﴾ وقوله تعالى في سورة البقرة[2] : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة ولمّا يأتكم مثل الّذين خَلَوْا من قبلكم مسّتهم البأساء والضّرّاء وزُلْزِلوا حتّى يقول الرّسول والّذين آمنوا معه متى نصر الله . ألا إنّ نصر الله قريب ﴾ فالمطلوب من المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أن يصبر كما صبر أولو العزم من الرّسل . وقد أمرته عليه الصّلاة والسّلام بذلك صراحةً سورة الأحقاف[3] . قال تعالى : ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرُّسل ﴾ .

وفي القول :﴿ ولا مبدّل لكلمات الله ﴾تؤكّد الآية الكريمة نصر الله سبحانه وتعالى رسله وجنده . وهذا المعنى بيّنه مثل قوله تعالى في سورة الصّافّات[4] : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنّهم لهم المنصورون . وإنّ جندنا لهم الغالبون ﴾ وقوله تعالى في سورة الرّوم[5] : ﴿ وكان حقّاً علينا نصر المؤمنين ﴾ وقوله تعالى في سورة غافر[6] : ﴿ إنّا لننصر رُسُلَنا والّذين آمنوا في الحياة الدّنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ .

وفي الجزئيّة الكريمة الأخيرة : ﴿ ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾ تستعمل جملة جاء الّتي تدلّ على القرب . إنّ المصطفى صلّى الله عليه وسلّم قد جاءه ووصله من أنباء المرسلين ما يثبّت فؤاده صلّى الله عليه وسلّم ويقوّيه لأنّه عليه الصّلاة والسّلام يجد فيهم أسوةً وقدوة . وهذا المعنى بيّنه مثل قوله تعالى[7] : ﴿ وكلاً نقصّ عليك من أنباء الرّسل ما نثبّت به فؤادك ﴾ .

---

(١) الآية ١١٠ .
(٢) الآية ٢١٤ .
(٣) الآية ٣٥ .
(٤) الآيات ١٧١ ــ ١٧٣ .
(٥) الآية ٤٧ .
(٦) الآية ٥١ .
(٧) سورة هود ١٢٠ .

وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾

وإن كان كبر عليك : وإن كان عظم عليك يا محمّد[١] وشقّ[٢]

إعراضهم : إعراض هؤلاء المشركين عنك وانصرافهم عن تصديقك فيما جئتهم به من الحقّ الّذي بعثتك به فشقّ ذلك عليك ولم تصبر لمكروهٍ مّا ينالك منهم[٣] .

فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض : فإن استطعت أن تتّخذ سَرَباً في الأرض مثل نافقاء اليربوع وهي أحد حِجَرته فتذهب فيه[٤] .

أو سلّماً في السّماء : أو مصعداً تصعد فيه كالدّرج وما أشبهها[٥] .

لازال الخطاب متّجهاً إلى المصطفى صلّى الله عليه وسلّم الّذي تكاد تذهب نفسه حسراتٍ لإعراض قومه عن دعوته إلى صراط العزيز الحميد رغم كون معجزته عليه الصّلاة والسّلام بيانيّةً وتعتبر خير ما يمكن أن يؤثّر في قومه أئمّة البيان وفرسان اللّسان . والآية الكريمة تقول للنّبي صلّى الله عليه وسلّم : إن كان قد شقّ عليك أيّها الرّسول الكريم إعراض قومك عن الدّعوة إلى صراط العزيز الحميد رغم معجزتك الكبرى الخالدة القرآن الكريم فإن استطعت أيّها الرّسول الكريم أن تبتغي نفقاً في الأرض وسَرَباً فيها ، والمعروف أنّ الدّخول في نفقٍ أو حفرة ليس بالأمر المستحيل ، أو إن استطعت أن تبتغي سلّماً في السّماء كي تصعد إليها وترقى ، والمعروف أن الصّعود في سلّم أو عمل السّلّم أو الدّرج أصعب من النّفق ولهذا تأخّر ترتيب السّلّم في الذّكر ، إن استطعت أيّها الرّسول الكريم هذا أو ذاك من أجل أن تأتيهم بآيةٍ تحملهم على الإيمان بك وتصديقك والدّخول في دين

---

(١) تفسير الطّبريّ ١١٧/٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ١٣٠/٢ .

(٣) تفسير الطّبريّ ١١٧/٧ .

(٤) تفسير الطّبريّ ١١٧/٧ والجحرة كمعنبه الجُحْر .

(٥) تفسير الطّبريّ ١٧/٧ .

الإسلام غير الآيات البيّنات الّتي آتيتك إيّاها فافعل . ومعروف أنّ القصد هنا هو تسلية النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وكَفّه عن قتل نفسه حزناً لإعراض قومه عنه . والمعروف أنّ القرآن الكريم في غير ما موضع نهاه عليه الصّلاة والسّلام عن قتل نفسه أسفاً لإعراض قومه عنه ، ومن ذلك قوله تعالى في سورة الكهف[1] : ﴿ فلعّلك باخعٌ نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ وقولُه تعالى في سورة الشّعراء[2] : ﴿ لعلّك باخعٌ نَفْسَكَ ألاّ يكونوا مؤمنين ﴾ .

إنّ لسان حال الآية الكريمة يقول : إنّ كفّار مكّة ومن شاكلهم إن لم يؤمنوا بالقرآن الكريم فإنّهم لن يؤمنوا بكلّ ما عداه من الآيات . وهذا المعنى أفصحت به الآية الكريمة الأخيرة من سورة المرسلات : ﴿ فبأيّ حديثٍ بعده يؤمنون ﴾ وقوله تعالى في سورة الجاثية[3] : ﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحقّ . فبأيّ حديثٍ بعد الله وآياته يؤمنون ﴾ .

وفي الجزئيّة الكريمة : ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾ تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى لو شاء أن يجعل النّاس جميعاً مسلمين لجمع كفّار مكّة وغير كفّار مكّة على الهدى وتحوّلوا جميعاً مسلمين لله ربّ العالمين . وهذا المعنى يقرّره مثل قوله تعالى[4] : ﴿ ولو شاء ربّك لجعل النّاس أمّةً واحدةً ولايزالون مختلفين . إلاّ من رحم ربّك . ولذلك خلقهم . وتمّت كلمة ربّك لأملأنّ جهنّم من الجنّة والنّاس أجمعين ﴾ وقوله تعالى[5] : ﴿ ولو شاء ربّك لآمن من في الأرض كلّهم جميعاً . أفأنت تُكْرهُ النّاس حتّى يكونوا مؤمنين . وما كان لنفسٍ أن تؤمن إلاّ بإذن الله .ويجعلُ الرِّجس على الذين لا يعقلون ﴾ .

وفي الجزئية الكريمة الأخيرة في الآية : ﴿ فلا تكوننّ من الجاهلين ﴾ نهيٌ للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن أن يشغله فرط حماسته وحزنه عن العلم بهذه الحقيقة وهي أنّ الله سبحانه وتعالى لو شاء لجمع كفّار مكّة وغيرهم من الكافرين على الهدى فدخلوا في دين الإسلام .

---

(١) الآية ٦ .
(٢) الآية ٣ .
(٣) الآية ٦ .
(٤) سورة هود ١١٨ ، ١١٩ .
(٥) سورة يونس ٩٩ ، ١٠٠ .

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

وتستمرّ هذه الآية الكريمة في تسليته صلّى الله عليه وسلّم والتّسرية عنه . إنّها تقرّر أنّ الّذين يستجيبون دعاءه صلّى الله عليه وسلّم لهم إلى الإسلام هم فقط أولئك الّذين يسمعون أحسن القول سماع وعي وتدبّر . وإنّ لسان حال الآية الكريمة يقول : ولكنّ الكافرين صمٌّ عن سماع صوت الحقّ سماع قبول بكمٌ عن النّطق بالحقّ عميٌ عن إبصار الهداية لأنّ قلوبهم التي في صدورهم أصابها العمى ، ألا وهو عمى البصيرة . إنّ الكافرين كالأنعام الّتي لاتسمع من الرّاعي إلاّ دعاءً ونداءً بل هم أضلّ لأنّهم هم الغافلون .

وهؤلاء الكافرون الغافلون تنزّلهم الآية الكريمة منزلة الأموات سكّان القبور على نحو قوله عزّ من قائل في سورة يس[1] : ﴿ لينذر من كان حيّاً ويحقّ القول على الكافرين ﴾ ومن قبيل الاستهزاء بهؤلاء الكافرين الغافلين الّذين تنزّلهم الآية الكريمة منزلة الأموات تبيّن الآية الكريمة أنّ الموتى يبعثهم الله ثمّ إليه يرجعون . إنّ هؤلاء الكافرين موتى بسبب كفرهم وإنكارهم للبعث وعدم سماعهم دعوة الحقّ سماع قبول . وإنّ الله سبحانه وتعالى سيبعث الموتى ومن بينهم الكافرون الأموات وهم أحياء ، الأموات وهم في القبور ، المنكرون للبعث .

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

الآية الكريمة بمثابة الدّليل على كون الكافرين منكري البعث بمثابة الأموات سكّان القبور بسبب عدم استعدادهم للفهم . إنّهم كلّ مرّةٍ يسألون آيةً ويقترحون معجزة ، ليس بسبب الرّغبة في دليلٍ أوضح لأنّ معجزة القرآن الكريم الكبرى الخالدة أوضح الآيات ، وليس بسبب الاستعداد للإيمان لو تحقّقت الاقتراحات الّتي تقلّ كلّها عن القرآن الكريم في وضوح الدّلالة وتحقيق الغرض ، ولكن بسبب اللّهو والعبث وبسبب الحرص على الادّعاء بأنّ محمّداً عليه الصّلاة والسّلام لايحقّق من الآيات ما يقترحون . ويظلّ هؤلاء الكافرون

---

(١) الآية ٧٠ .

يصرّون على نسيان الحكمة الّتي يلقّنها إيّاهم القرآن الكريم دائماً أو الّتي لايريد أكثرهم أن يعلمها . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ هؤلاء الكافرين يقولون هلاّ أنزل عليه صلّى الله عليه وسلّم آيةٌ محسوسةٌ من ربّه كعصا موسى ومائدة عيسى وناقة صالح . وتأمر الآية الكريمة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أن يقول للقوم الكافرين إنّ الله سبحانه وتعالى قادرٌ على أن ينزّل آيةً ولكنّ أكثرهم لايعلمون أنّ في نزول تلك الحجج والعلامات استئصالاً لشأفتهم لأنّه سبق في علمه جلّ وعلا أنّهم لن يؤمنوا وأنّهم سيصرّون على الكفر وفي ذلك هلاكهم لا محالة ولم يشأ الله تعالى ذلك إكراماً للمصطفى صلّى الله عليه وسلّم الموجود بين ظهرانيهم ولأنهم يستغفرون الله تعالى على نحو ما بيّنت سورة الأنفال[1] في قوله تعالى : ﴿ وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم وما كان الله معذّبهم وهم يستغفرون ﴾

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾

ما فرّطنا في الكتاب من شيء : عن ابن عبّاس : ما تركنا شيئاً إلاّ قد كتبناه في أمّ الكتاب[2] أي اللّوح المحفوظ[3] .

ثمّ إلى ربّهم يُحْشرون : الحشر الموت[4] وقيل حشرها بعثها يوم القيامة[5] .

تقرّر الآية الكريمة أنّه ليس من دابّةٍ تمشي في الأرض ولا طائرٍ يطير بجناحيه في الهواء إلاّ أممٌ أمثالنا . والدّابّة تشمل كلّ ما يدبّ على الأرض . وهذه الآية الكريمة من سورة النّور[6] تقول بذلك . قال تعالى : ﴿ والله خلق كلّ دابّةٍ من ماء . فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع . يخلق الله مايشاء . إنّ الله على كلّ شيءٍ قدير ﴾ وآية سورة الأنعام تخاطب جنس الإنسان وهو ممّا يمشي على رجلين . والآية الكريمة تقرّر أنّ كلّ نوع من الدّوابّ أمّةٌ من الأمم فعلى سبيل المثال النّحل أمّة والنّمل أمّة والّطير أمّة وهكذا : « وقال قتادة : الّطير أمّة . والإنس أمّة . والجنّ أمّة »[7] وإنّ ما

---

(١) الآية ٣٣ .
(٢) تفسير الطّبريّ ١١٩/٧ .
(٣) الجلالين .
(٤) تفسير ابن كثير ١٣١/٢ وتفسير الطّبريّ ١١٩/٧ .
(٥) تفسير ابن كثير ١٣١/٢ وتفسير الطّبريّ ١٢٠/٧ .
(٦) الآية ٤٥ .
(٧) تفسير ابن كثير ١٣١/٢ .

قرّره القرآن الكريم من كون كلّ نوعٍ من الدّوابّ أمّةً قائمةً بذاتها قد قال به أخيراً العلم الحديث . وهذا مظهرٌ من مظاهر إعجاز القرآن الكريم .

وإنّ القول في الآية الكريم : ﴿ ما فرّطنا في الكتاب من شيء ﴾ ينبّه إلى إحاطة الله سبحانه وتعالى علماً بكلّ ما خلق وأنّه جلّ وعلا ما ترك شيئاً إلاّ وقد كتبه في اللّوح المحفوظ . وحينما يحيط الله سبحانه وتعالى علماً بكلّ ما خلق وكما جاء في الحديث : « يحشر الخلق كلّهم يوم القيامة ، البهائم والدّوابّ والطّير وكلّ شيءٍ فيبلغ من عدل الله يومئذٍ أن يأخذ للجمّاء من القرناء ثمّ يقول كوني ترابا فلذلك يقول الكافر : يا ليتني كنت ترابا [1] يكون معنى ذلك أنّ ما لايعقل وما ليس بمكلّف مجازىً فكيف بالإنسان الّذي كرّمه ربّه وأنعم عليه بنعمة العقل . هل يليق بجنس الإنسان الّذي كرّمه ربّه أن يكون منه كفّار مكّة ومن لفّ لفّهم من المكذّبين المعاندين .

إنّ كلّ هذه الأمم بعد موتها تحشر إلى ربّها وتجمع لفصل الحساب فعلى كلّ إنسانٍ أن يعي ذلك جيّداً وأن يتصرّف وفق ما وعى ، وأن يستعدّ لذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود .

ويلاحظ أنّ الآية الكريمة يجيء فيها القول : ﴿ ولا طائرٍ يطير بجناحيه ﴾ ومعروفٌ أنّ الطّائر لايطير إلاّ بجناحيه ، ولكنّ عادة العرب حينما تريد أن تبالغ في الكلام أن يجيء على لسانها مثل قولهم : « كلّمت فلاناً بفمي ومشيت إليه برجلي وضربته بيدي »[2] وإنّ القرآن الكريم الّذي نزل بلسانٍ عربيٍّ مبين والّذي لم يلو للّغة العربيّة عنقاً يخاطب العرب في الطّريقة الّتي بها يتخاطبون وباللّغة الّتي بها يتكلّمون .

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ ۖ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾

على الرّغم من كلّ الآيات البّينات والحجج الواضحات يصرّ كفّار مكّة ومن لفّ لفّهم على الكفر والتّكذيب وصدّ الآخرين عن سبيل الله تعالى . وهذه الآية الكريمة تريد

---

(١) تفسير ابن كثير ١٣١/٢ .

(٢) تفسير الطّبريّ ١٢٠/٧ .

أن تصف الكافرين بأنّهم صمّ بكمٌ عمي ، فهم صمٌّ عن سماع الحقّ سماع قبول ، بكمٌ عن نطق الحقّ ، عمي البصيرة . وفيما يتّصل بعمى البصيرة استعملت الآية الكريمة القول : ﴿ في الظّلمات ﴾ بمعنى أنها بيّنت المصير السّيّء الّذي حاق بعمي البصائر فقد عاشوا في ظلمات الكفر والشّرك والشّكوك والرّيب .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ من يشأ الله سبحانه وتعالى أن يضلّه فإنّه يضلّ وبذلك يزداد عمىً إلى عماه ، وأنّ من يشأ الله سبحانه وتعالى أن يهديه فإنّه يجعله على صراطٍ مستقيم ويشرح صدره لدين الإسلام الّذي لايقبل الله سبحانه وتعالى من عبدٍ سواه .

قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾

قل أرأيتكم : أخبروني[1] .

إن كنتم صادقين : إن كنتم محقّين في دعواكم وزعمكم أنّ آلهتكم الّتي تدعونها من دون الله تنفع أو تضرّ[2] .

في الآيتين الكريمتين تبكيتٌ لكفّار مكّة ولكلّ المشركين مع الله تعالى سواه . إنّ الآية الكريمة الأولى تطرح على الكافرين سؤالاً تطلب منهم فيه أن يخبروا وأن يقولوا الحقّ . إن أتاهم عذاب الله سبحانه وتعالى في هذه الحياة الدّنيا بياتاً أو نهاراً أو أتتهم السّاعة وقامت القيامة بما تشتمل عليه من عذاب أغير الله تعالى يدعون بأن يكشف الغمّة ويزيل الكربة ويأتي بالفرج إن كانوا صادقين في عبادتهم تلك الأصنام وادّعائهم أنّها تدفع ضرّاً وتجلب نفعاً أم أنّهم يدعون الله سبحانه وتعالى وحده لاشريك له لأنّه هو وحده القادر على ذلك؟ .

وإنّ الآية الكريمة الأخرى لتجيب على السّؤال فتنفي دعاء المشركين ما يدعون من

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٢١/٧ .

(٢) تفسير الطّبريّ ١٢٢/٧ .

دون الله تعالى وتثبت دعاءهم لله تعالى وسؤاله جلّ وعلا أن يكشف الضرّ وتقرّر أنّ المشركين ينسون في غمرة الشّدّة الآلهة المزعومة المقصودة في ساعة الرّخاء . كما تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى يكشف إن شاء الضّرّ الّذي تسألونه كشفه .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾

بالبأساء : الفقر والضّيق في العيش[1] .

والضّرّاء : الأمراض والأسقام والآلام[2]

يتضرّعون : التّضرّع هو التّفعّل من الضّراعة وهي الذلّة والاستكانة[3] .

فلولا : فهلاّ[4] .

فلمّا نسوا ما ذكّروا به : عن ابن عبّاس : تركوا ما ذكّروا به[5] وأعرضوا عنه وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم[6] .

فتحنا عليهم أبواب كلّ شيءٍ : أبواب السّعة في المعيشة والصّحّة في الأجسام[7] .

---

(١) تفسير ابن كثير ١٣٢/٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ١٣٢/٢ .

(٣) تفسير الطّبريّ ١٢٢/٧ .

(٤) تفسير ابن كثير ١٣٢/٢ .

(٥) تفسير الطّبريّ ١٢٣/٧ .

(٦) تفسير ابن كثير ١٣٢/٢ .

(٧) تفسير الطّبريّ ١٢٣/٧ .

فإذا هم مبلسون : آيسون من كلّ خير . عن ابن عبّاس المبلس الآيس[1] .

فقُطِع دابر القوم الّذين ظلموا : دابر القوم الّذين يدبرهم وهو الّذي يكون في أدبارهم وآخرهم[2] فاستؤصل القوم الّذين عتوا على ربّهم وكذّبوا رسله وخالفوا أمره عن آخرهم فلم يترك منهم أحدٌ إلاّ أهلك بغتةً إذ جاءهم عذاب الله[3] .

في الآيات الكريمات الأربع المترابطة تسليةٌ للمصطفى صلّى الله عليه وسلّم وإنذارٌ للمشركين المكذّبين ولفتٌ لانتباهم بأنّ عليهم أن يأخذوا العظة والعبرة ممّا حل بالمكذّبين السّابقين من المشركين أمثالهم . إنّ الآية الكريمة الأولى تبيّن في أسلوب التّأكيد بأنّ الله سبحانه وتعالى قد أرسل رسله إلى أممٍ من قبل أمّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم فأعرضوا عن دعوة الحقّ وصدّوا عنها فأخذهم الله سبحانه وتعالى العزيز الجّبار المنتقم بالبأساء وسائر ضروب الفقر والضنك في العيش وبالضّراء وسائر ضروب الأمراض والأسقام والأوجاع . حدث كلّ ذلك بقصد حملهم على العودة إلى الله تعالى والتّذلّل له جلّ وعلا .

والآية الكريمة الثّانية تقرّر أنّ المنتظر من القوم والمفروض فيهم لو كانوا سليمي الفطرة والطّويّة أن يتضرّعوا إلى الله تعالى ويتذلّلوا ويستكينوا له جلّ وعلا وقد جاءهم بأساؤه جلّ وعلا وضرّاؤه . والعجيب في أمر أولئك الأقوام أنّ قلوبهم الّتي في صدورهم قست فغدت عصيّةً على كلّ موعظةٍ أن تتخلّلها ووراء ذلك زيّن لهم الشّيطان الرّجيم ما كانوا يعملون من إشراكٍ مع الله تعالى غيره وتكذيبٍ للرّسول وإنكارٍ لآياته عليه الصّلاة والسّلام ومعجزاته ومعاص .

والآية الكريمة الثّالثة تبيّن أنّ المشركين المكذّبين لمّا نسوا ما ذكّروا به من آيات الله تعالى بيّنات عن طريق رسل الله تعالى إليهم ، ومن ضروب البلاء والشدّة ولمّا لم يُجْدِ مع القوم التّمحيص والبأساء والضّرّاء فتح الله سبحانه وتعالى لهم كلّ أبواب النّعيم استدراجاً وأسبغ عليهم أثواب السّعة في المعيشة والصّحّة في الأبدان وظنّ المشركون المكذّبون المغفّلون

---

(١) تفسير ابن كثير ١٣٢/٢ .

(٢) تفسير الطّبريّ ١٢٤/٧ .

(٣) تفسير الطّبريّ ١٢٤/٧ .